TAS_LIID_19/01

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة -تلمسان-

كلية الآداب واللغات

قسم: اللغة والأدب العربي

تخصص: حضارة عربية إسلامية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر

الموسومة بـ:

الإسهامات الحضارية لأدباء القرن الرابع الهجري "أبو حيان التوحيدي في الدرس اللغوي أنموذجا"

من إعداد الطالبة:

مسكورة زهرة.

إشراف الأستاذة:

بن مداح سميشة.

السنة الجامعية 1432/1433هـ-2011/2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر وتقدير

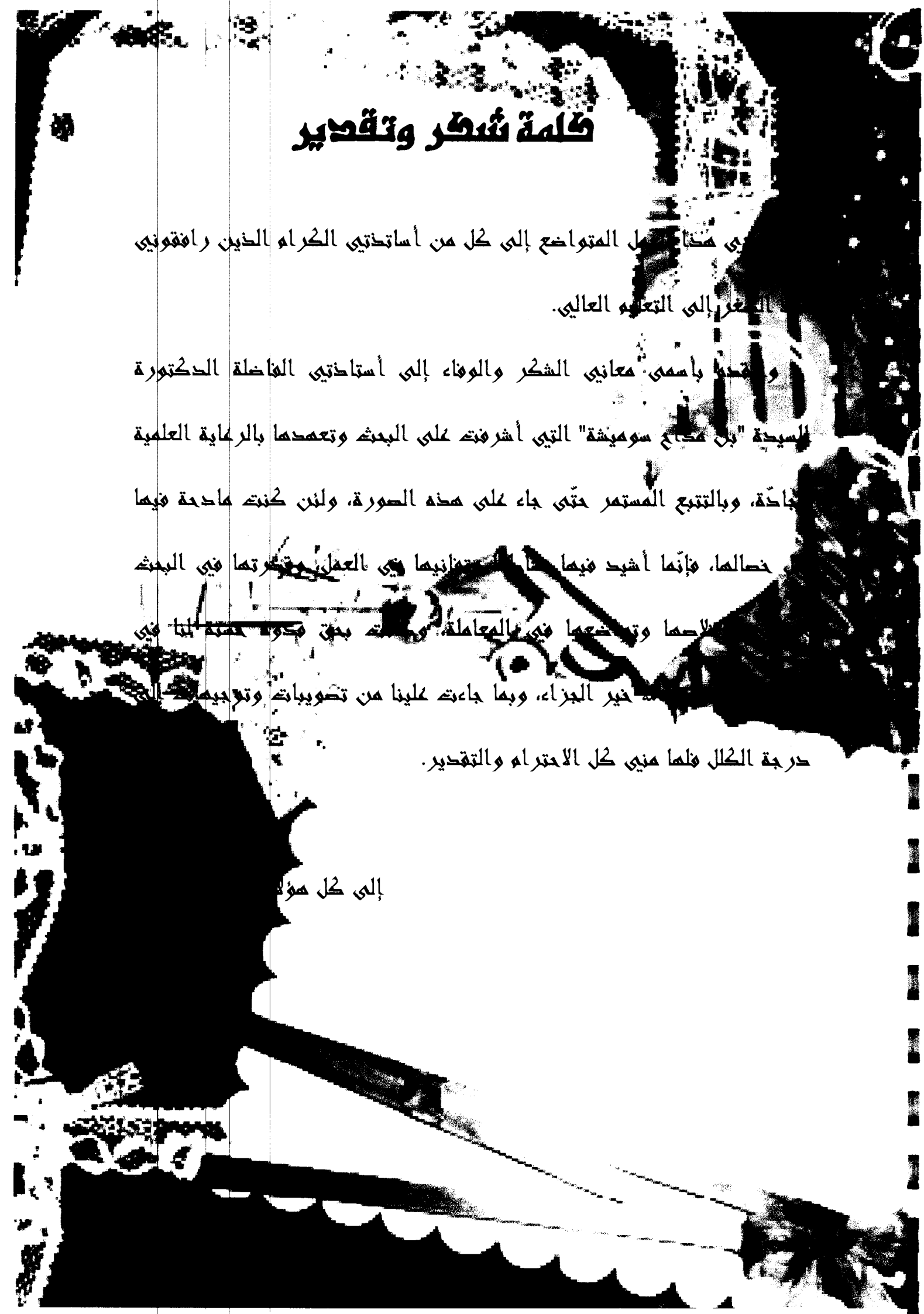

ي هذا العمل المتواضع إلى كل من أساتذتي الكرام الذين رافقوني

ر إلى التعليم العالي.

وأتقدم بأسمى معاني الشكر والوفاء إلى أستاذتي الفاضلة الدكتورة

السيدة "بن مداح سوميشة" التي أشرفت على البحث وتعهدها بالرعاية العلمية

جادّة، وبالتتبع المستمر حتّى جاء على هذه الصورة، ولئن كنت مادحة فيها

خصالها، فإنّما أشيد فيها بما استوعبته في العمل وتقديرها في البحث

لاصها وتواضعها في المعاملة، فجزاها الله بحق فكونت عندنا في

خير الجزاء، وبما جاءت علينا من تصويبات وتوجيهات

درجة الكمال فلها مني كل الاحترام والتقدير.

إلى كل من

إهداء

إلى الذين قال فيهما تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ سورة الإسراء، الآية: 23.

إلى الّتي حملتني وهنا على وهن، إلى الّتي تأمّلت وسهرت الليالي من أجلي نبع الحنان والطيف الدافئ أمّي

أمّي.....أمّي

.....أمّي.

إلى الذي جعل من حبّة الليمون شرابا حلوا وكدّ واجتهد في غسق الليل، إلى أروع وأعظم وأطيب قلب إلى الذي كافح من أجلي وعبّد الطريق لي أبي الحنون

أبي ..... أبي

..... أبي.

إلى من قاسموني طعم الأمومة زين الدين الذي كان نعم الأخ وكان سندي الأول والأخير في مشواري.

إلى فلذة كبدي أختي "فايزة".

إلى أروع وأعز وأغلى من شاركتني أجمل لحظات عمري: أحلام.

إلى صديقاتي التي لم تلدهم أمي إلا أنّهم كذلك.

مقدمة
Imagem Fast.com

مقدمة

حفل الفكر البشري منذ بداياته الأولى بأشكال مختلفة من الاتجاهات التي ميّزت صيرورته ، وطبعته بطبائع خاصّة كالتشاؤم والإحساس بالغربة والقرن الرّابع الهجري يعدّ زهرة الحضارة الإسلامية.

عرفت هذه الحضارة منذ العصر الوسيط ازدهارا كبيرا في كافّة الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثّقافية والفكرية ، وقد كان للدّين الإسلامي دور كبير في هذه الوضعية ، من خلال مبادئه التّي تحثّ على العمل وتحصيل المعرفة والتّدبر في الكون والحياة والبحث في العقل ووجهة نحو التفكير والإبداع.

إلّا أنّ القرن الرّابع الهجري كان أوّل عصر بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها، وهو قرن أصدق ما يوصف به أنّه مجال ثورات لا تهدأ ، أو فتن لا تنام واضطراب دائم الغليان ، وأحقاد لا تبقي ولا تذر ، ممّا تميّز به القرن الرّابع الهجري أنّه كان حقبة نضج في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية. وفي هذا القرن أصبح المثقّفون المسلمون قادرين على الإبداع والعطاء في أكثر من ميدان من ميادين المعرفة بعد أن تجاوزوا دور الأخذ والنّقل والإحتذاء.

لقد حظي العصر العبّاسي وخاصّة القرن الرّابع الهجري بكبار المفكرين الذين جمعوا بين الفلسفة والأدب في نتاجهم والتوحيدي أحد الذين أنتجهم هذا القرن ، فقد ساهم بقسط كبير من فكر وأدب في رسم بعض المعالم بازدواجية المنهج وهو يعدّ أحد الذين خرجوا عمّا كان مألوفا لدى كثير من الأدباء والمفكرين في عصره سواء من حيث الأسلوب أو من حيث الاتجاه الفكري ، ومن خلال ما ورد في كثير من مؤلفاته برزت لنا الملامح الأساسية لشخصية التوحيدي الفكرية.

دون أن أطنب في حصر أسباب اختياري للموضوع ، أشير بصفة موجزة إلى أنّ دوافع هذه الدراسة كثيرة وعلى رأسها قلّة الدراسات في هذا المجال ، لأنّ الخوض في مثل هذه الموضوعات التّي ما يزال كثير من جوانبها غامضا ، يتحشّاها الدارسون ويهابها الباحثون

لاعتبارات متباينة سواء أكان ذلك على مستوى النشأة المضطربة ، أم على مستوى قلّة المصادر وصعوبة الإهتداء إليها.

وإنّ الدّاعي إلى ذلك يتخلص في أنّ عملنا في هذا البحث هو عبارة عن تأسيس أو تأريخ لهذه الحركة العلمية ، ولكون الموضوع جديدا ــ حسب علمي ــ شرعت في رصد الدراسات التي سبقت بحثي أو تعرضت له تعرّضا غير مباشر ، فوجدت أشتاتا مبثوثة هنا وهناك ممّا كان الإستطراد يقود إليها أو جزئية تخدم البحث حيث وقفت في دراستي على مصادر ومراجع كانت لنا سندا وذلّلت صعوبات هذا الموضوع.

وإذا كانت الضرورة تقتضي الإشارة إلى الصعوبات والمشكلات التي اعترضت الرسالة ، فهي تتحدّد فيما يأتي:

أوّلا: إنّ الباحث في العصر العبّاسي عامّة ، والقرن الرّابع الهجري خاصّة لا شكّ أنّه واقع في حرج وضيق ، لأنّه يتعامل مع أدب ضاعت أغلب نصوصه ، وما وصل إلينا منه إلّا القليل.

ثانيا: قلّة المصادر والمراجع وصعوبة الإهتداء إليها ، وحتّى وإن توفرت ، فإنّها موجودة في أماكن يصعب علينا التنقل إلى مراكز وجودها ، وهذا ما تعذّر علينا في كثير من الأحيان ، وما زاد الموضوع صعوبة هو انعدام سنوات الولادات والوفيات بالنسبة لأشهر الأعلام.

إنّ هذه الصعوبات لم تزدني إلّا رغبة ونشاطا لتقوية العزيمة ، ومضاعفة الإرادة لتجاوز كلّ صعوبة ، وإنّ سهولة العثور على المعلومات وإيجادها جاهزة ، لا يضفي على البحث حلاوة ، فقد تمكّنت من الإستعانة بمظان أخرى كانت لي سندا في تحرير هذه الصفحات ، والإطّلاع على جانب مهمّ من الفترة المدروسة ، كما كان لأستاذتي الدكتورة الفاضلة " **بن مداح سميشة** " اليد الطولى في تذليل هذه الصعوبات بتحفيزي على البحث ونصحي بالتريّث والتّعقل والسّير حثيثا في الموضوع ، فسرت على منهاجها إلى أن وصلت إلى الهدف المنشود.

وحتّى تخرج هذه الدراسة بنتائج محدّدة ، ولا تتشعب بها السبل ، آثرت أن أوظف المنهج التاريخي التحليلي. حيث عمدت إلى تتبّع الآراء الكثيرة ، وربطتها في الآن ذاته بعدّة أحداث

ووقائع تاريخية ، ثمّ أحصيت كثيرا من الفنون الأدبية وعرضها على المحكّ فاستنطقت النّصوص نفسها لاستخراج ما يهدف إليه البحث.

أمّا الخطّة التي اتّبعتها في إنجاز قضايا هذا البحث فتتألّف من مقدمة ومدخل وثلاثة فصول وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع وفهرس لمواد البحث. ففي الفصل الأوّل وقفت عند الحركة الفكرية في القرن الرّابع الهجري وقسّمته إلى ثلاث مباحث ففي المبحث الأوّل تطرقت إلى ميادين الفكر في هذا القرن ، بينما المبحث الثّاني خصّصته للحضارة الإسلامية بين التّأثير والتّأثر ، أمّا المبحث الثالث فقد اشتمل على دور الحضارة في الأدب واللّغة. أمّا فيما يخصّ الفصل الثّاني فتحدّثت فيه عن الإسهامات الحضارية وقسّمته إلى مبحثين درست في المبحث الأوّل الازدهار الحضاري في القرن الرّابع وأدبائه أمّا فيما يخصّ الفصل الثالث فخصّصته لأبي حيّان التوحيدي وقضايا اللّغة (أنموذجا) وقسمته إلى ثلاث مباحث : درست في المبحث الأوّل التعريف بحياة أبي حيّان التوحيدي ، والمبحث الثّاني أوجزت الحديث فيه عن أبي حيّان التوحيدي الأديب أمّا المبحث الثالث فخصّصته لأبي حيّان التوحيدي في الدّرس اللّغوي " لغويا ".

وذيّلت البحث بخاتمة ، استعرضت فيها أهمّ النتائج التّي تسنّى لي استنباطها وألحقتها بسرد قائمة للمصادر والمراجع ولوضع فهرس لمواد البحث.

وبعد ، فهذا ما استطعت الوصول إليه في دراستي ، فإن كنت قد وفّيته حقّه وأنصفت أدباءنا، فذلك ما أهدف إليه ، وأجهدت نفسي لأجله ، وإن يكن غير ذلك فعزائي أنّني لم أذخّر جهدا ولا طاقة في سبيله. والكمال لذي العزّة والجلال.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وأسأله أن يزيدني علما ومعرفة ، فإن شاب هذا البحث من خطأ فهو من نفسه وإن أصبت فمنه تعالى.

وبالله التوفيق

تلمسان في : 20_ 06_ 2012م

زهرة مسكورة

مدخل

مفهوم الحضارة تاريخها
الملامح الثقافية لهذا العصر

إنّ موضوع الحضارة موضوع متفرع ومتشعب ، فيه آراء ومدارس ، وقد تعرضت كلمة الحضارة عبر التاريخ إلى التطور والتغيير ، واختلف معناها بين مدرسة وأخرى وتجلّى ذلك في الحضارة العربية الإسلامية التي أعطتنا مفهوما جديدا للتمدن والتحضر من خلال مد جسور التواصل مع الإنسانية جمعاء دون تعصب لدين أو انحياز لعرق ، فانصهرت بذلك أجناس شتّى تحت تأطير أخلاق الإسلام ، فكانت النتيجة التعاون والتكامل بين الآنام ، ممّا أدّت إلى فتح الأبواب لاكتشاف الكفاءات وهيّأت الظروف أمام أصحاب التجارب والخبرات ، فازدهرت في ظلالها العلوم ، وتقدمت الإكتشافات وتسارعت الأبحاث في الطب والهندسة والفلك والحساب والعمران في شتّى الجهات. لذلك فموضوع الحضارة هو موضوع غنيّ في ذاته ، ممتد إلى غيره وأهميته تكمن في ماهيته وكذا في تفرعه.

« يبدو أنّ لقب الحضارة هو وصف قيمة يطلق على ثقافة ما أو أمّة من الأمم لتمايز نوعي في طبيعة قيمها ووجودها المادّي والمعنوي وقوة تأثيرها في محيطها ، وعندما يغدو هذا التمايز كمّيا فإن الحضارة تدخل في طور المدنية ، لذلك تعرف كلمة حضارة في معجم متن اللّغة هي ضد البداوة والإقامة في الحضر أخصّ من ذلك الطباع المكتسبة من المعيشة في الحضر وأطلق مجتمع مصر اسم الحضارة على ما يسمّى بالفرنسية "civilization " واسم التحضير والتمدن على مايسمّى بالإنجليزية "urbanisation"»[1]وفي المعجم الوسيط الحضارة الإقامة في الحضر قال القطامي :

« ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا.»[2] والحضارة هي مظهر من مظاهر الرقي العلمي والفنّي والأدبي والاجتماعي. وفي ذلك يقول جميل صليبا : «ومع أنّ استعمال هذا اللّفظ قديم فإنّ أول من أطلقه على معنى قريب من معناه الحاضر هو ابن خلدون ففرّق في مقدمته بين العمران البدوي والعمران الحضري وجعل أجيال البدو والحضر طبيعة في الوجود فالبداوة أصل

[1] _ على عتبات الحضارة ، بحث في السنن وعوامل التخلق والإنهيار ، د. بتول أحمد جندية ، دار الملتقى سورية حلب ، الطبعة الأولى سنة 2011م _ 1432ه ، ص 11 _12.

[2] _مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي ، د. آمنة تشيكو ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ص 17.

الحضارة والبداوة أقدم من الحضر وإذا كانت البداوة أصل الحضارة فإن الحضارة غاية البداوة ونهاية العمران.»[1]

ويعد المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي عبد الرّحمن ابن خلدون أوّل من عالج شؤون الحضارة بصورة منظّمة فيما أسماه بعلم العمران البشري والإجتماع الإنساني. والحضارة عند ابن خلدون هي طور طبيعي من أطوار المجتمع البشري مثلها في ذلك البداوة ولكن البداوة أقدم وهي أصل الحضر والحضارة غاية البداوة ، ويرى ابن خلدون أنّ المجتمع إذا بلغ درجة التحضر أو الحضارة وانغمس في نعيمها فسدت أخلاقه وآذن بانهياره. ولقد أعطى لنا جميل صليبا مفهوم الحضارة التي قسمها عن لسان ابن خلدون في مقدمته بين العمران البدوي والعمران الحضري ، وقال أنّه هو أوّل من عالج شؤون الحضارة بصورة منظّمة حيث يقول:« وإذا كثر ذلك في المدنية أو الأمّة تأذّن الله بخرابها وانقراضها فافهم ذلك واعتبر به أنّ غاية العمران هي الحضارة والترف وأنّه إذا بلغ غالبية انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات. والحضارة هي خلاف البداوة الإقامة في الحضر وهي كلمة مرادفة لمدنية والمدنية كلمة مشتقة من مدن المدائن أي مصرها وبناها ونحتوا منها فعل تمدن وجعلوا معناها تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة ودخل في حالة الحضارة وهي تعادل كلمة" civilisation " وقد استعملها ابن خلدون بمعنى الحضارة في قوله.»[2] ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها و الكلمتان مشتركتان في الإشارة إلى معنى واحد هو الاستقرار في الحواضر وسكنى المدن.

والحضارة عند المحدثين لها معنيان أحدهما موضوعي والآخر ذاتي مجرد « فالمعنى الموضوعي هو إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفنّي والعلمي والتقني التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع وهي بهذا المعنى متفاوتة فيما بينها ولكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها فنطاقها هو حدودها الجغرافية وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد. أمّا الحضارة في معناها الذّاتي المجرّد فتطلق على مرحلة سامية من مراحل التّطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش أو تطلق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على

[1] _ المرجع السابق ص 18.

[2] _ على عتبات الحضارة – بحث في السنن وعوامل التخلق والإنهيار د. بتول أحمد جندية ، ص 12.

صفات كل فرد أو جماعة فإذا كان الفرد متّصفا بالخصال الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائية قلنا أنّه متحضر وكذلك الجماعات فإنّ تحضرها متفاوت بحسب قربها من هذه الصورة الغائية أو بعدها عنها ومع أنّ الصورة الغائية للحضارات مختلفة باختلاف الزمان والمكان فإنّ اختلافها لايمنع من اشترائها في عناصر واحدة فالكلام على الحضارة بهذا المعنى لا يخلو من تقويم وتقدير الحكم على الحضارات بنسبتها إلى المثل العليا المتصورة في الأذهان.»[1]

هناك عدة تعاريف للحضارة وهي متقاربة في المبنى ومتّحدة في المعنى وأدّقها هو أنّ الحضارة هي مجموعة المفاهيم الناتجة من وجهة نظر الأمّة التي تشكل طرازا خاصّا لها في الحياة. وكما عرّفها المؤرخون والمفكرون نذكر منهم على سبيل المثال مالك بن نبي: « الذي قال أنّها إنتاج فكرة حيّة تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج المثالي الذي اختاره وعلى هذا النحو تتأصل جذوره في محيط ثقافي أصيل يتحكم بدوره في جميع خصائصه التي تميّزه عن الثقافات الأخرى.»[2]

يتجلى لنا من خلال تعريف مالك بن نبي أنّ أساس الحضارة هي الأفكار فهو يرى أنّ للفكرة المسيحية مثلا الفصل في دخول أوروبا التاريخ ولكن من الواجب أن يكون للأفكار دور وظيفي لكي يدخل مجتمع ما في التاريخ لأن الحضارة في رأيه القدرة على القيام بوظيفة أو بمهمّة معيّنة فهو يقول: « ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنّها جملة العوامل المعنوية والماديّة التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه.»[3] وهذا المفهوم يخالف مفهوم علماء الأنتربولوجيا الذين يعتبرون كل شيء من أشكال الحياة حضارة. إضافة إلى ذلك نذكر أسعد السامّرائي الذي عرف الحضارة على «أنها نتاج حركة أبناء المجتمع بتوازن معنوي مادّي إلى أهداف محددة تحقق ممارسة الدور لهذا المجتمع في تاريخ البشرية.»[4] وفي نظر الدكتور محمد بن عبد الكريم : « فهي ظاهرة إجتماعية تتبلور في نظم محكمة وآثار ماثلة ويضيف شارحا هذا التعريف قائلا فقولنا "ظاهرة إجتماعية " إحتراز من الظاهرة الفردية التي مبعثها الثقافة ونعني ب "النظم المحكمة" كل ما يقتضيه النظام والإحكام في تسيير الإنسان المتحضر

---

[1] _ مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي ، د. آمنة تشيكو ص 19 _ 20.
[2] _ المرجع نفسه ص 122.
[3] _ المرجع نفسه ص122.
[4] _ الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية ، الأستاذ موسى عبد اللاوي ، دار العلوم للنشر والتوزيع حقوق الطبع محفوظة ، ص 13.

مثل النظم السياسية والإقتصادية، والإدارية والقضائية والحربية والثقافية والزراعية والتجارية والأسرية ، وهلّم جرّا (.....) ونعني "بالآثار الماثلة" فن العمارة بجميع أنواعها مثل تخطيط المدن وتمصير الأمصار وتشييد البنيان ثمّ النحت والرسم (.....) الخ »[1]

من خلال هذين التعريفين نستخلص أنّ الحضارة تزدهر وتنمو بحسن التعامل مع ماهو كائن من عناصرها والإعتماد على مقوماتها باستغلال الطاقات الكامنة فيها ، واستثمارها يتفرع عنها وإيجاد الإنسجام التوفيقي مع الذات ومع الطبيعة والمحيط وتنمية الأفكار وتجسيدها من خلال القيام بحسن التخطيط ، أمّا العبقرية لوحدها فإنّها لا تنشئ حضارة إلاّ إذا تفاعلت مع الذات ومع واقع الحياة في قول إبراهيم مكي إبراهيم على أنّها : « طراز معيّن لحياة شعب أو شعوب إختارت عقيدة معيّنة وآمنت بها وألزمت أفرادها بتنظيمها علاقتهم في الحياة بموجب أو أمرها ونواهيها.»[2]

وبما أنّنا تعرضنا لتعريف الحضارة عند العرب فلا يفوتنا الحديث عن تعريف الحضارة عند الغرب ومنهم وول ديورانت الذي قال أنّها : «نظام إجتماعي يعيّن الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وإنّما تتألف الحضارة من عناصر أربعة هي الموارد الإقتصادية والنظم السياسية والتقاليد الخلقية ومتابعة العلوم والفنون وهو تعريف يعكس المفهوم الأمريكي للتطور المبني على الثقافة كسلوك للرقيّ الإجتماعي والإزدهار الإقتصادي.»[3]

حيث يقول رولان موسنييه عن الحضارة مايلي : « هي مجموعة من الحفاظ والنظم القمينة أي الجديرة بإشاعة النّظام والسلام والسعادة وبتطوير البشرية الفكري والأدبي. »[4] فقد عرف ألبرت أشفيتسر على أنّها : « التقدم الروحي والمادّي للأفراد والجماهير على حد سواء.»[5] وقال أنّها: « في جوهرها أخلاقية وأنّ العناصر الجمالية والتاريخية والإتساع الرائع في معارفنا المادّية وقوانا كل هذا لا يكون جوهر الحضارة وإنّما يتوقف هذا الجوهر على الإستعدادات العقلية عند الأفراد والأمم القاطنة في العالم وماعدا هذا فليس إلاّ ظروفا مصاحبة للحضارة لا شأن لها

---

[1] _ المرجع السابق ص13_ 14.
[2] _ المرجع نفسه ص 15.
[3] _ معالم الحضارة العربية الإسلامية مدخل – نظم – علوم – زراعة وصناعة – اجتماعيات – عمارة وفنون – تأثيرات د. اسماعيل سامعي ، ديوان المطبوعات الجامعية 10- 2007 ، ص 15.
[4] _ المرجع نفسه ص 15.
[5] _ الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية ، د. موسى عبد اللاوي ، ص 14.

بجوهرها.» [1] من خلال المفاهيم يمكن القول بأنّ الحضارة في كلمة وجيزة هي "التقدم" كما تتمثل الحضارة في التنمية الفعّالة بذلك الإستمرارية الإيجابية من خلال توفير متطلبات الحياة والحاجات الأساسية

وقد يختلف العلماء والدارسون والباحثون في تسمية حضارتنا بالحضارة العربية أو الحضارة الإسلامية أو الحضارة العربية الإسلامية. « فمفهوم هذا الأخير واسع وشامل فالحضارة مشتقّة من الفعل حضر حضورا وحضارة والحضور كما هو معروف ضد المغيب ولكن أصل الحضور المقصود هنا يكون إلى موارد الماء ولذلك يقال في اللّغة للمناهل المحاضر وذلك للإجتماع والحضور عليها والحضارة الإسلامية هي التي قامت مع قيام الإسلام وانتشرت في كل بقاع الدولة الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وحلّت محل الحضارات القديمة في الشام التي عرفت الحضارات الفينيقية والآرامية والكنعانية والتي انصبغت آخر الأمر بالحضارة الرومانية البيزنطية وفي العراق حيث قامت حضارات بابل وآشور القديمة أو التي تأثرت بحضارة الفرس وفي مصر حيث عاشت الحضارة الفرعونية ثمّ القبطية التي انصبغت بالصبغة اليونانية وكذلك حضارة إيران القديمة البرثية والساسانية إلى جانب حضارة البربر في المغرب وحضارة القوط في الأندلس ومع أنّ دولة الإسلام أخذت من كل هذه الحضارات القديمة إلّا أنّها تمثلت كل ما أخذته منها وصبغته بالصبغة الإسلامية ولمّا كان الإسلام هو رسالة العرب ولمّا كان العرب هي مادة الدولة الإسلامية في عصورها الأولى كان من الطبيعي أن يصبح طابع هذه الحضارة هو الطابع العربي وبناءا على ذلك فهي الحضارة العربية قبل أن تكون الحضارة الإسلامية. وهذا ما جعلها تتميز عن غيرها وتتجدد باستمرار عبر أطوارها ومازالت قابلة للتجديد وقادرة على فك القيد عنها والحصار لأنّ القاعدة الأصلية التي انطلقت منها الحضارة العربية الإسلامية وكذا الركيزة المتينة التي اعتمدت عليها تتمثل في الإسلام.» [2]

ونافلة القول أنّه مهما اختلفت التسميات وتعدد الآراء حول مستوى هذه الحضارة فإنّها تبقى متميزة في عالم سمّاه الغربيون بالعصور الوسطى. كما تبقى نبراسا يهدي الكثير ويرشدهم إلى

[1] _ معالم الحضارة العربية الإسلامية ، د. اسماعيل سامعي ص 15.
[2] _ تاريخ الحضارة الإسلامية د. نبيلة حسن محمد ، دار المعرفة الجامعية ، ص 08 _ 10.

الطريق المستقيم طريق التمكين في الأرض متى عرفوا الدوافع أو العوامل التي حرّكت ذلك من الشعوب والقبائل والأفراد والجماعات فاشتركوا جميعا في بناء صرح حضارة عربية إسلامية مازالت أنوارها تشع على العالم وستبقى(.....)

تقول الدكتورة زيغريد هونكة : « إنّ الشروط التي لابد منها لنهضة العالم الإسلامي هي استرجاع الشخصية ببعث الحياة من جديد في اللّغة العربية وفي الدّين الإسلامي وبفهم التاريخ ووعيه من أجل إدراك العصر الحاضر وفهمه حق الفهم.»[1] ثمّ تضيف زيغريد قائلة : « والإسلام بالذات هو الذي أقام الدليل وسيقيم الدليل مرّة أخرى على أنّه غير مرتبط إرتباطا وثيقا بعصر واحد وإنّما هو دين يسمو عن الإقتران بالزمان والمكان.»[2] يتجلى لنا من خلال هذا التعريف أنّ الركيزة المتينة التي اعتمدت عليها الحضارة تتمثل في الإسلام الذي هو دين الله الخالد الذي يكفل للبشر سعادة الدارين فمن آمن به وعمل بما جاء به فاز ونجا ومن جحده وأعرض عن ذكر ربه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

وقد حلّل مالك بن نبي « تحليلا دقيقا ما يتعلق بفقه الحضارة وبيّن أنّ انطلاقها من داخلها يكون فمنطلقاتها كامنة فيها ويرى مالك بن نبي أنّ الحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس وأنّها تتركب من عناصر أربعة وهي الفكرة الدينية والإنسان والتراب والزمن. »[3] بيّن مالك بن نبي أنّ الحضارة تتركب من عناصر أربعة وهي الفكرة الدينية أو الأخلاقية والإنسان والتراب والزمن وأنّ انطلاقها يكون من داخلها. حيث أنّ عوامل قيام حضارة ما تتشابه مع عوامل قيام الحضارات الأخرى أو هي نفسها تقريبا باعتبار أنّ هذه العوامل ثابتة وقلّ ما يصيبها التغيير فهي سنة أو أمر الله في كوننا هذا قال تعالى: « وتلك الأيام نداولها بين النّاس »[4]

« والحضارة الإسلامية من جملة الحضارات التي تعاقبت على وجه الأرض خضعت لنفس هذه العوامل التي سنوضحها بصورة عامّة في الآتي : فوصف الأرض جيولوجيا أنّها مرّت بعصور جيولوجية تدعى الأزمنة الجيولوجية آخرها الزمن الذي نعيش فيه ويقدر العلماء أنّ العصر الأخير

---

[1] _ الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية ، د. موسى عبد اللاوي ، ص 16.
[2] _ المرجع نفسه ص 17.
[3] _ المرجع نفسه ص 17.
[4] _ سورة آل عمران، الآية 140.

شهد أربعة عصور جليدية بين كل عصر وآخر نشأت حضارة. شهدت جغرافيا تقلبات مناخية وطقوس من حرارة وبرودة ورطوبة وجفاف وأمطار ورياح وإعصارات وتصحر ومن المعلوم أنّ المناطق الحارّة والإستوائية لا توفر الظروف المناخية المناسبة لنشاط الإنسان وبالتالي لقيام حضارة. ساهم اقتصاديا في ظهور الزراعة واستقرار الإنسان باكتشافه لها فبنى مسكنه ومعبده واستأنس الحيوانات لخدمته وازدادت قدرته على نقل التراث الإنساني لذلك ارتبطت الحضارة والثقافة بتطور الزراعة واكتشاف الغذاء كان بداية لمرحلة ثانية من حياة البشر. هي الحضارة التي قوت اللّحمة بين أفراد الأمّة والإسلام كعقيدة وشريعة حيث كان العامل الرئيسي في تحقيق هذا الإلتحام في المجتمع ممّا جعل أفراده يتنافسون في تحقيق مثله العليا وفي مقدمته سعادة الإنسان في الدارين فنشأت عنها مجتمع أخلاقي. إنّ نظام التعليم هو الذي يساهم في قيام الحضارة. أسس عليها اللّغة العربية والفقه الإسلامي هما عاملين أساسيين ومهمين ظبطهما بالإستقرار السياسي ووجود نظام قوي يفرض القانون على الجميع وبزيادة الوسائل والإمكانيات تزدهر الحضارة.»[1]

نستشف ممّا ذكر سابقا أنّ كلّ هذه العوامل المجتمعة هي التي كانت وستكون وراء ازدهار الحضارات ولو انعدم منها لتقوضت أسسها.

إنّ الإضطراب والفساد الذي أصاب كل من الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية خلال منتصف القرن الرابع الهجري فقد أدت بالحركة العلمية إلى الإزدهار والإنتعاش الذي لم يعرف له مثيل من قبل ولا من بعد هذه الفترة ، حتّى أنّ الكثير من الأدباء اعتبر هذه المرحلة من أخصب مراحل الثقافة العربية الإسلامية وقد كان للإنقسام السياسي الأثر العظيم في ذلك الإزدهار فرغم خروج الكثير من الأقاليم من حيث أنّها لم تكن متنافسة فيما بينها في شؤون السياسة فحسب بل كانت أيضا متنافسة أشد ما يكون التنافس في جلب الأدباء والعلماء لتشجيعهم على البحث والتأليف وفي ظل ذلك أدّى « إلى الإستقرار والهدوء والأمن الذي ساعد على تأمين رغد العيش ومتعة الحياة للإنسان حتّى إذا ما توفر للإنسان كل ذلك أمكنه أن يلجأ إلى المتعة النفسية والعقلية والجمالية فتزدهر العلوم وتنشط الآداب ولكن من الملاحظ بصورة عامّة أنّ هذا الإزدهار والنشاط لايتوقف إذا اضطربت الحياة السياسية لأن نمو العلوم والآداب والفنون

[1] _ معالم الحضارة العربية الإسلامية د. اسماعيل سامعي ، ص 28_29_ 30 _31.

وازدهارها أو تأخرها وانحطاطها إنّما يتقلب في أطوار بطيئة عديدة للغاية لاتساير الأطوار السياسية ولا تسير معها جنبا إلى جنب.»[1]

فأحسن مايقال في هذا العصر إنتشار الثقافة الإسلامية إنتشارا يدعوا إلى الإعجاب بفضل الترجمة من اللّغات الأجنبية وخاصة اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية والعامل الأوّل في ذلك هو حث الإسلام المسلمين على طلب العلم واعتباره فريضة على كل مسلم ومسلمة كما حظي العلماء بتشجيع من الخلفاء والسلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب وكانت مراكز هذه الحركة الثقافية في بلاط السامانيين والغرنويين والبويهيين والحمدانيين في الشرق وفي بلاط الطولونيين والأحشيديين والفاطميين في مصر وفي بلاد الأمويين في الأندلس. ويضاف إلى ذلك ظهور كثير من الفرق التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مآربها السياسية. ممّا لاننسى ذكره أنّ في هذا العصر « نشأ مشاهير الفكر العربي وطوفوا بين مختلف الإمارات بحثا عن الرزق متكسبين ببضاعتهم الفكرية المختلفة وبدا الترحال النثري على غرار الترحال الشعري الذي نذكر مثلا : المتنبي وابن العميد والصّاحب بن عبّاد والخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني والتوحيدي وأبو فراس وابن دريد والشريف الرضيّ وابن الحجّاج والثعالبي والفرابي والأصفهاني والجوهري والعكبري والزوزوني والأشعري والتهامي ابن يوسف وابن سينا والمعرّي والجرجاني والطبري والمسعودي والرّازي وابن النّديم وابن عبد ربه وابن هاني الأندلسي والببغاء والوراء الدمشقي والسري الرفاء وابن خالوية وابن جنّي وأبو علي الفارسي والوزراء والكتّاب كانوا في طليعة المشجعين لهاته الحركات الفكرية الجريئة فقد أيدوها بالمال والرعاية ولم يدخل الوزراء في خلية هذا الصراع الثقافي فحسب بل كانوا يديرون مقاليده ويوجهونه حسب أهوائهم.»[2] وكان للجدل والنقاش الذي قام بين هذه الفرق من ناحية أخرى أثر كبير في هذه النهضة العلمية التي كان يتميز بها هذا العصر وخاصة في القرن الرابع الهجري على الرغم ممّا انتاب العالم الإسلامي بوجه عام من تفكك وانحلال وما أصاب الدولة العباسية من ضعف ووهن.

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي" فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"، إعداد محمد علي الصباح، جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1411ه _ 1990م، ص 12 _ 13.

[2] _ الأديب والمفكر أبو حيّان التوحيدي، تأليف علي دب، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثانية ، ص 23 _ 24.

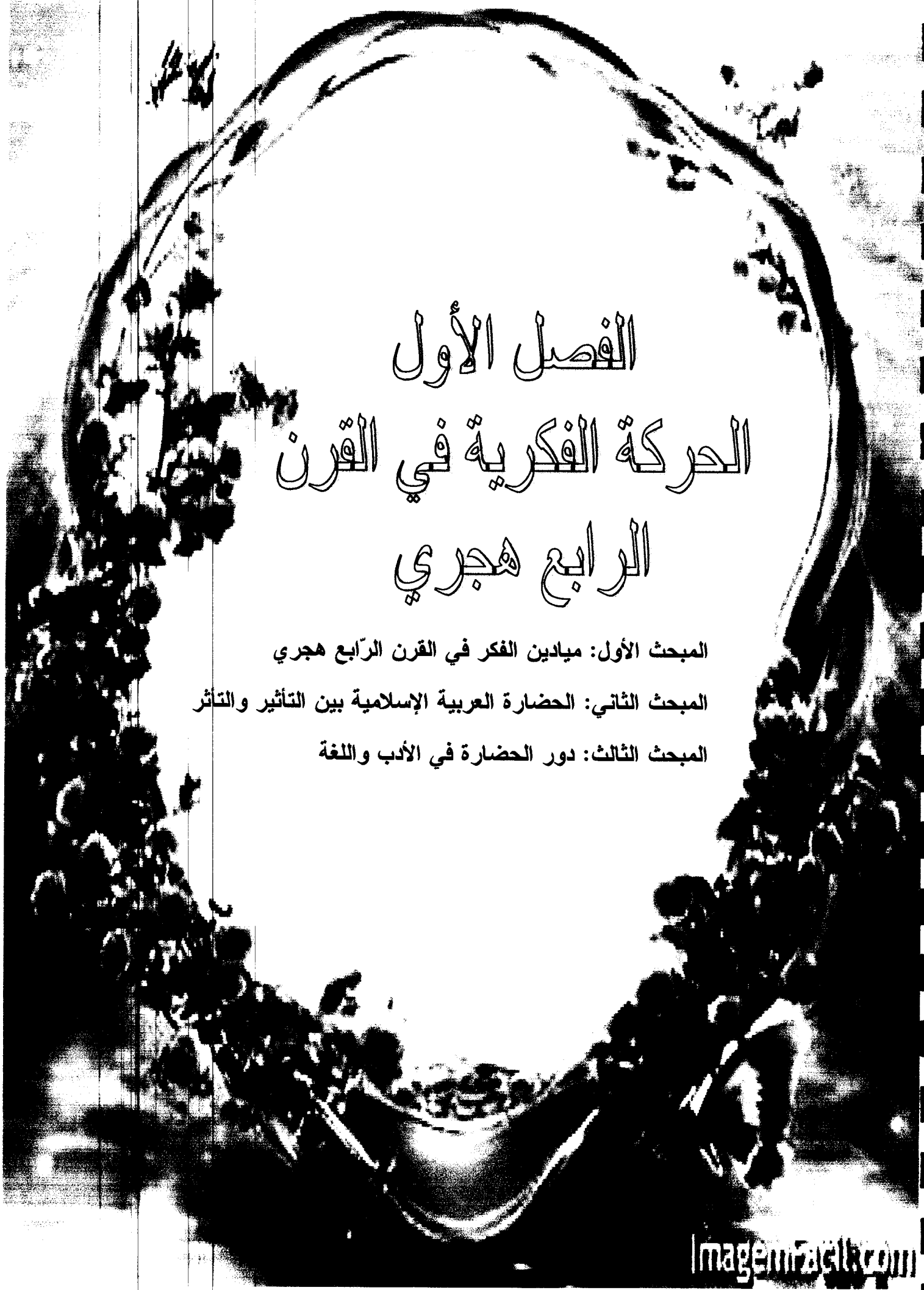

الفصل الأول
الحركة الفكرية في القرن الرابع هجري

المبحث الأول: ميادين الفكر في القرن الرّابع هجري

المبحث الثاني: الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر

المبحث الثالث: دور الحضارة في الأدب واللغة

المبحث الأوّل: ميادين الفكر في القرن الرّابع الهجري

قد يتبادر إلى الذهن حينما نطلق عبارة " الحركة الفكرية " بأنّنا نريد الإحاطة بكلّ ما تشير إليه هذه العبارة من عناصر الحياة العلمية النّظرية والتطبيقية بما فيها من فلسفة ومنطق وفلك ورياضيات وكيمياء وعلوم لغوية وإبداعات أدبية وفنّية (....) الخ ولكنّنا في الحقيقة لا نهدف إلى الإحاطة بكلّ عناصر الحياة الفكرية ولا نزعم بأنّنا نستطيع القيّام بذلك ، وإنّما الذي يعنينا هنا هو أن نأخذ فكرة موجزة عن النّشاط العلمي بصفة موجزة ، ثمّ نتوقف عند شواهد النضج المعرفي في القرن الرّابع الهجري ونخصّ بالحديث منه الحركة الفلسفية وفرقة المعتزلة التّي تميّزت بمواقفها في الدفاع عن الإسلام وتصدّيها للشعوبية.

كان القرن الرّابع الهجري عصر النضج الثقافي والعلمي ،« وهو قرن أصدق ما يوصف به أنّه مجال ثورات لا تهدأ ، وفتن لا تنام ، واضطراب دائم الغليان ، وأحقاد لا تبقي ولا تذر »[1]، وممّا تميّز به القرن الرّابع الهجري أنّه كان حقبة نضج في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية ، وكان من أعنف العصور التي واجهت الدولة العبّاسية ، وهو العصر الذي بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها ، « وإنّ أبرز هذا النضج يتمثل في أنّ التيّار الذي كان قويّا مندفعا في القرن الثالث مازال على قوته واندفاعه في القرن الرّابع ، ولم يتأثر فجأة بالعوامل السياسية »[2]، « وقد نجم عن ذلك أن صارت العواصم تزخر بكبار رجال العلم والأدب وصارت تتنافس بغداد حلب وقرطبة والقاهرة وأصفهان وشيراز وهمذان ونيسابور وسمرقند والرّى.»[3]

كما يبدو أنّ الإنقسامات الكثيرة والخصومات السياسية كانت نعمة على الازدهار العلمي والأدبي في هذا العصر « فقد تنافست الإمارات المستقلّة في اجتذاب العلماء والأدباء وبالغت في إكرامهم وتنافس الملوك والأمراء في إقتناء المكتبات ونشر دور العلم ونظرة على فهارس يتيمة

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم الطبع والنشر مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ط 2 ، ص 08.
[2] _ المرجع نفسه ص 27.
[3] _ المرجع نفسه ص 28.

الدهر للثعالبي تعطي صورة حيّة نابضة للحشد الزاخر من الشعراء والعلماء والأدباء الذين تجمّعوا في بلاطات الإمارات المستقلّة »[1] ويعجب المؤرخ " لويس سيديو " من هذه الظاهرة يقول :« من التناقض العجيب أن كنت ترى مسالك السلطة مضرجة بالدم وحرس بغداد يملي إرادته على خلفاء النّبي عليه السلام وأن كنت ترى العرب الذين تعبوا من الحرب ومن الفتن الداخلية منهمكين في دراسة العلوم والآداب.»[2] ورغم آل بويه كانوا بعيدين عن الثقافة العربية في بداية أمرهم إلّا أنّهم « كانوا يستوزرون المتفوقين في ثقافة عصرهم فقد وزر الأستاذ الرئيس أبو الفضل بن العميد إلى ركن الدولة البويهي.»[3] وكان كما يقول عنه الثعالبي :« واحد العصر في الكتابة ويدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس ويضرب به المثل في البلاغة ووزر ابنه أبو الفتح ابن العميد بعد موته إلى ركن الدولة أيضا سنة 361ه فقام مقام أبيه وكان آخذا من محاسن الآداب بأوفر حظ » وكان كما يقول ابن خلكان أيضا : « نادرة الدهر وأعجوبة العصر.»[4]وقد تميّز هذا العصر بكثرة المكتبات الكبرى في مصر والعراق والأندلس وغيرها. وفي هذا القرن أصبح المثقفون المسلمون قادرين على الإبداع والعطاء في أكثر من ميدان من ميادين المعرفة بعد أن تجاوزوا دور الأخذ والنّقل والإحتذاء.

وممّا لامراء فيه أنّ الشواهد على هذا النضج المعرفي كثيرة ، ويمكن أن نلتمس في أكثر من ظاهرة ميدانا ولعلّ ما يدلّ عليها دلالة واضحة ، نظرة النّاس إلى العالم والعلماء ، بما تكشف عنه من تفهم عميق لطبيعة العلم ورسالته وما ينبغي أن يتوافر للعالم من سمات وأخلاق يقول المطهر المقدسي المتوفي سنة 255ه في هذا الشأن :« ويأبى العلم أن يضع كتفه ، أو يخفض جناحه ، أو يسفر عن وجهه ، إلّا لمتجرد له بكليته ، ومتوفر عليه بأنيته ، منعان له بالقريحة الثاقبة ، والروية الصافية ، مقترنا به التأييد والتسديد ، قد شمر ذيله ، وأسهر ليله حليف النصب ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرجا ، ويتلقّاه متطرّقا ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام، ومع هجران عادة الشر ، والتروع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الألف ، ونبذ

---

[1] _ النقد الأدبي حول أبي تمّام والبحتري في القرن الرّابع الهجر ي ، د. محمد علي أبو حمدة ، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، الطبعة الأولى 1969م ، ص 19.

[2] _ المرجع نفسه ص 19.

[3] _ المرجع نفسه ص 20.

[4] _ المرجع نفسه ص 21.

المحاكلة واللجاجة ، وإجالة الرأي عند غموض الحق ، والتأنّي بلطيف المأتى ، ووفيّة النّظر حقّه من التمييز المشتبه والمتضح والتفريق بين التمويه والتّحقيق والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد.»[1]وشاهد آخر على النضج المعرفي في القرن الرّابع يتمثل في «حلقات العلم والأدب التي وجدت في قصور الحكّام سواء أكانت في بغداد عاصمة الخلافة أم في عواصم الأقاليم التي استقلّت عمليا عن الخلافة العبّاسية ، ففي بغداد كانت حلقة الوزير المهلبي وحلقة الوزير ابن سعدان وفي حلب حلقة سيف الدولة الحمداني وفي الرّي وشيراز وأصفهان كانت حلقات ابن العميد وعضد الدولة والصاحب بن عبّاد وقد ضمّت هذه الحلقات مجموعة من أشهر شعراء العصر وأدبائه وعلمائه.»[2]

ومن مظاهر التّفتح الفكري والسعي إلى المعرفة في القرن الرّابع الهجري « حركة إنشاء المدارس في المشرق الإسلامي كإنشاء المؤسسة التعليمية التي أطلق عليها إسم " مدرسة " دلالة على أنّ الغرض الأوّل من إنشائها هو التدريس خلافا للمسجد الذي كان مكانا للصلاة والعبادة أوّلا ثمّ موئلا للدّارسين المتعلمين بعد ذلك.»[3] وممّا يرتبط بالسعي وراء العلم والمعرفة في هذا القرن « الإهتمام الكبير بالكتب والمكتبات ، وإلى جانب هذه المكتبات الخاصّة شهد القرن الرّابع الهجري دور كتب أنشئت من أجل أن ينتفع بما فيها من مراجع وليزاول فيها التعليم كذلك.»[4]

ونافلة القول أنّ انتشار المؤسسات التعليمية والإهتمام بالمكتبات والكتب دليلان لإقبال النّاس على الثقافة والتعلم ، كما شهد القرن نبوغ مجموعة من أعلام الفكر في مختلف فنون الأدب ، وقد أظهر العلماء دقة في طريقة النقد العلمي ونقد الوثائق المكتوبة ، وإثبات تزويرها اعتمادا على معرفة تواريخ حياة الرجال الذين ترد أسماؤهم فيها ، « ومن مظاهر الانفتاح العقلي والاستنارة الفكرية في هذا القرن تسامح المسلمين مع أتباع الدّيانات الأخرى في زمن كانت فيه فكرة التسامح الدّيني في أنحاء أخرى من الأرض تكاد تكون غريبة.»[5]وليس الغريب إذن في مجتمع

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم ، د. محمود إبراهيم ، الدار المتحدة للنشر ، ص 24.
[2] _ المرجع نفسه ص 24.
[3] _ المرجع نفسه ص 24 _ 25.
[4] _ المرجع نفسه ص 25.
[5] _ المرجع نفسه ص 26.

منفتح فكريا كمجتمع القرن الرّابع الهجري « فقد اشتهر " آل بويه " بالعلم والأدب فكان " عز الدولة " بن المعز شاعرا وكان " عضد الدولة " وابنه تاج الدولة أديبين وكذلك كان أبو العبّاس ابن " ركن الدولة " على أنّ " عضد الدولة "كان نابغا في عدة علوم إلّا أنّه كان أكثر وزارئهم كتّابا أو شعراء أو علماء وكان الغرنويون مشغولين بالفتح لكن حروبهم تصرفهم عن مناظرة العلم والأدب و لم تشغل السلطان محمود عن اجتذاب العلماء والأدباء إلى حاضرة ملكه ، أمّا بنو حمدان بالموصل وحلب فقد كانوا عربا خلصا وكان شعراء ، وحسبنا أن نعلم أنّ سيف الدولة كان أمل الأدباء والعلماء في عصره. والفاطميّون فقد استقرّوا بالقاهرة واتخذوها عاصمة لدولتهم الكبيرة وجعلوا ينافسون بغداد في مظاهر الخلافة والأبهة وفي الحفاوة بالعلماء والأدباء ، فالمعز أنشأ الأزهر ليكون مثابة العلماء الشيعة والعزيز أنشأ في قصره خزانة كتب ملأها بالمؤلفات ، وحاكاه في ذلك جمع من أهله ، ثمّ بنى الحاكم دار ، واستكثر فيها من الكتب ، وتأنّق في تأسيسها وزخرفتها حيث وظّف لها مشرفين ينظّمون طرائف الإنتفاع بها وأباح للمترددّين عليها أن يعقدوا مناظرات فيها وأعدّ بها أوراقا وأقلاما ومحابر للذين ينقلون من كتبها وهو الذي أنشأ المرصد الحاكمي على جبل المقطم.»[1] كما عرف هذا القرن بكتّاب جالوا وصالوا في الموضوعات الثقافية وغذّوا عقولهم وقراءهم بألوان من المعرفة يصوّرونها بأقلامهم الفنيّة ويهتمّون بالتعبير القويّ عن أفكارهم في غير إيثار للتزويق على الفكرة ومن هؤلاء : « أبو حيّان وأبو إسحاق الصابي وابن مسكويه والشريف الرضى.»[2]

وممّا لا شكّ فيه أيضا أنّ الحياة العلمية والأدبية والثقافية بصورة عامّة تنتعش وتزدهر في ظلّ « الاستقرار والهدوء والأمن لأنّ هذه العوامل تساعد على تأمين رغد العيش ، ومتعة الحياة للإنسان، فتزدهر العلوم وتنّشط الآداب ، ولكن من الملاحظ بصورة عامّة أنّ هذا الازدهار والنّشاط لا يتوقف إذا اضطربت الحياة السياسية لأنّ نمو العلوم والآداب والفنون

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ص 28.
[2] _ المرجع نفسه ص 29.

وازدهارها أو تأخرها وانحطاطها إنّما يتقلّب في أطوار بطيئة مديدة للغاية لا تساير الأطوار السياسية ولا تسير معها جنبا إلى جنب.»[1]

إنّ لأدب هذا العصر خصائص مميزة حيث « أنّها لم تقتصر على الجوانب الفنّية القائمة على الصناعة والتأنق في اللّفظ والصورة بل تعدّت إلى التأليف الذي يميل إلى النهج العلمي أيضا»[2] فمنذ حوالي عام 200ه _ 800م بدأ الأدب يتحرك بحركات جديدة وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا في النّفوس ما يرفعها إلى آفاق الحياة القوية أقلّ من ميلهم إلى أخذ ألباب النّاس بمادة جديدة للأدب وبمعان دقيقة وعبارات وأخيلة جميلة.»[3] أمّا الكتابة فقد كانت في هذا القرن الرّابع « أوسع موضوعا وأصفى أسلوبا وأبعد فكرا وأوضح منطقا ، فاتّسع المجال في النّثر لذوي الأفكار الثاقبة فزيّنوه وجمّلوه بالتقسيم والسجع فنبغ في هذا القرن شعراء وأدباء كثيرون في المشرق والمغرب.»[4] فكان التقدير والإجلال للكلام المنثور إلى جانب تقدير الشعر ذلك التقدير الذي هو مبدأ كلّ نثر جيّد ، أكبر فضيلة للعرب القدماء « ويعتبر الجاحظ هو أبو النّثر العربي الجديد ويعتبره الثعالبي أوّل كتّاب النّثر.» « وقد صنّف أبو حيّان التوحيدي على أنّه من أبرز كتّاب النّثر العربي على الإطلاق»[5]، ثمّ إنّ ظهور التصوف حوالي القرن الثالث الهجري نتيجة اضمحلال الرّوح العربية ونضوب قوتها. ساعد كثيرا على نشر الأدب وجعله شعبيا ، وعلى نشر الكتب بين الجماهير.

يتضح لنا ممّا ذكر سابقا أنّه لولا اضمحلال الرّوح العربية القديمة لما دخل السجع في البلاغة العربية في ذلك العصر ، ويحكى عن الوزير ابن عبّاد وزير البويهيين أنّ كان ولوعا بالسجع إلى حدّ الإفراط فيه ويقول التوحيدي عن هذا الوزير :« وكان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل يزيد على كلف كلّ من رأيناه في هذه البلاد. قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عبّاد في عشقه للسجع؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنّه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها جبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى عزم ثقيل وكلفة صعبة لما كان يخفّ عليه أن

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 : 1411ه _ 1990م ، ص 12.

[2] _ المرجع نفسه ص 14.

[3] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، تأليف الأستاذ آدم متز ملتزم الطبع والنشر ، دار الفكر العربي ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة الدار التونسية للنشر 1986م ، ص 317.

[4] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، ص 13.

[5] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، د. آدم متز ، ص 318.

يخليها ، بل يأتي بها ويستعملها.»[1] وتعدّ الرسائل الفنّية في القرن الرّابع الهجري أدّق آية التّي تمثلت لازدهار الفنّ الإسلامي ، ومادّتها هي أنفس ما عالجته يد الفنّان وهي اللّغة حيث كان لا يخطر على البال أن تكتب مثل هذه الرسائل من غير أن يكون فيها سجع وقد عظم شأن هذا الفنّ في كتابة الرسائل الجيّدة في أواخر القرن الرّابع إذا اعتبرت مطية للارتزاق وكان يعيشون أهلها من هذه الصناعة كما عاش الشعراء قديما من التكسب بالشعر.

« وقد بلغ أبو حيّان التوحيدي مرتبة الأستاذ في هذه الطريقة وكان على ذروة من ذراها فكان عالما بدقائق الأسلوب الرائع وقادرا عليه غير أنّنا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه التكلّف الذي نجده عند غيره من الأدباء ولقد كان أبو حيّان فنّانا غريبا بين أهل عصره حيث جاء المؤرخ الكبير مسكويه الذي كان يعتبر أكبر مؤرخي القرن الرّابع الهجري فألّف كتاب " أنس الفريد " وهو أحسن كتاب صنّف في الحكايات القصار والفوائد اللطاف.»[2]

« والجانب الأكبر من شعر القرن الرّابع الهجري ظلّ في البلاطات هذا من النّاحية اللّفظية أمّا من الناحية المعنوية فإنّ للبيئة تأثيرا كبيرا على الأدب فقد كانت فيه بلاطات متنوعة وفيها صروحا فسيحة لإزدهار الشعر والعلوم والفنون والأدب.»[3]، ومع ذلك تعتبر لغة بشار بن برد هي لغة كلّ الشعراء القدماء حتّى اعتبره اللّغويّون حجّة حيث حدث في الشعر ما حدث في النّثر لأنّه كان عليما بأسرار اللّغة ممّا كانوا يعدّونه قائدهم.»[4]اختصر شعراء العرب في وصف الطبيعة المحيطة بهم نبوغ خاص وكانوا منذ القدم يذكرون شيئا في وصفها كشعر الشراب « وفي النّصف الأوّل من القرن الرّابع نبغ شاعران شاميان وكانا صديقين فأنشآ قصائد تغنيا فيها بالبساتين ومالها من جمال أوّلهما فهو " أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبري " والثّاني " أبو عثمان سعيد ابن هاشم " شاعرين كبيرين في الموصل.»[5] « وفي أواخر هذا القرن أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على اختلافها فنجد وصف الميزاب إلى جانب وصف الشاعر صورته في المرآة وذلك إرضاء لرغبة

---

[1]_ المرجع السابق ص 322.
[2]_ المرجع نفسه ص 334.
[3]_ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، ص 15.
[4]_ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، د. آدم متز، ص 337.
[5]_ المرجع نفسه ص 344.

النّاس في المستحدث حيث قال أبو العبّاس الفضل بن علي الإسفراييني من كورنيسابور في وصف شمعة نصبت في بركة:

« وشمعة وسط أيمن البـــرك تميس في الماء ميس مرتبـــــــــك

كأنّها البدر في السماء سرى فحار في أوجه الفـــــــــلك »[1]

وقال عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب الشاعر المصري في وصف الهرمين:

« انظر إلى الهرمين إذ بـــــرزا للعين في علو وفي صعـــــد

وكأنّما الأرض العريضة قـــد ظمئت لطول حرارة الكبد

حسرت عن التدريس بارزة تدعو الإله لفرقة الولـــــــد

فأجابها بالنيل يشبـــعها ريا وينقذها من الكمـــــــــد.»[2]

وهكذا نجد الصنوبري والمتنبي وابن الحجّاج والشريف الرضيّ يقفون جنبا لجنب في القرن الرّابع الهجري وكلّ واحد منهم يشبه في النّاحية التي نبغ فيها قمّة تشرف على كلّ القرون التالية للأدب العربي.

لقد فتح القرن الرّابع الهجري فتحا جديدا في النّاحيتين الرئيسيتين لعلوم اللّغة العربية وهما النحو وعلم المعاجم ، إذ شعر علماء اللّغة بالحاجة إلى منهج يسيرون عليه وإلى تناول مادة بحثهم بطريقة منظّمة. وقام علماء اللّغة بتحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم بطريقة جديدة مخالفة لطرائق اللّغويين القدماء ويصف السيوطي طريقة علماء اللّغة المتقدّمين في تعليمهم فيقول: «وظائف الحافظ في اللّغة أربعة ، أحدها وهي العليا ــ الإملاء ، كما أنّ الحفّاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء (...) وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدّثين سواء : يكتب المستملي أوّل القائمة : مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ، ويذكر التاريخ ، ثمّ يورد المملي

[1] _ المرجع السابق ص 353.
[2] _ المرجع نفسه ص 354.

بإسناده كلاما عن العرب والفصحاء في غريب يحتاج إلى التفسير ، ثمّ يفسّره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ، وقد كان هذا في الصدر الأوّل فاشيا كثيرا ، ثمّ مات الحفّاظ وانقطع إملاء اللّغة من دهر مديد واستمرّ آمال الحديث (....) وآخر من علمته أملى على طريقة اللّغويين أبو القاسم الزجاجي ، له آمال كثيرة في مجلد ضخم وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، ولم أقف على آمال الأحد بعده.»[1] وأكبر ما تمّ على أيدي اللّغة هو تحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم. حيث كان « حمزة الأصفهاني المتوفي سنة (350_ 360ه_ 961_ 970) خاتمة اللّغويين القدماء التي كانت كتبهم لا تشتمل إلّا عبارات للخطباء والبلغاء وفيما يتعلق بالأمثال الخالصة نجد أنّ أكبر كتاب هو الذي ألّفه في القرن الرّابع الهجري الحسن العسكري المتوفي سنة (390ه _ 1005م) »[2] وكذلك ظهرت في هذا العصر دراسة جدّية للإشتقاق اللّغوي وبقيت عصرا طويلا « وكان أستاذ هذه الدراسة ابن جنّي الموصلي المتوفي عام (392ه _ 1002م) » وهو البحث الذي لايزال يؤتى ثمره إلى اليوم ولم يكن لعلماء اللّغة من العرب إنتاج أعظم من هذا. وفي الإشادة إلى العلم والعلماء قال ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنّا واحدا ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع في العلوم.»[3]

و كان صاحب العلوم الدنيوية يسمّى كاتب وكان يتميز عن العلماء في لباسه ، « فكان العلماء يلبسون الطيلسان وكان في كلّ جامع كبير مكتبة لأنّه من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع.»[4] « وكان الملوك يفاخرون بجامع الكتب حتّى كان لكلّ ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في آواخر القرن الرّابع ولع شديد بالكتب »[5]، « وقد عمل القاضي ابن حيّان في مدينة نيسابور دارا للعلم وخزانة كتب ومساكن للغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الرزق ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة »[6] وقد أنشأ أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة « دار كتب في مدينة أم هرمز على شاطئ بحر فارس كما بنى دارا

[1] _ المرجع السابق ص 313.
[2] _ المرجع نفسه ص 314.
[3] _ المرجع نفسه ص 229.
[4] _ المرجع نفسه ص 230.
[5] _ المرجع نفسه ص 231.
[6] _ المرجع نفسه ص 236.

أخرى بالبصرة »[1] وفي سنة 33ه أسّس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بني بويه " دارا للعلم " [2] فالجامعة الأزهرية التي هي أكبر معهد علمي إسلامي اليوم نشأت في القرن الرّابع الهجري وكان الجامع المنصور ببغداد وهو أقدم مسجد جامع بها أشهر مركز للتعليم في المملكة الإسلامية وقد جلس إبراهيم بن محمد بن نفطوبه وكان من أكبر العلماء لمذهب داود الأصبهاني « وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ وكان ذلك طبيعيا لأنّ الفقهاء يعلّمون العلم الذي يؤهل أصحابه لتولّي مناصب يعيشون منها ولكن لو قارنّا عدد التلاميذ في ذلك العصر لوجدناه صغيرا بالنسبة لما نراه اليوم وهذا ما يدلّ على كثرة العلماء بالنسبة إلى التلاميذ »[3]وقد رويت لنا من القرن الرّابع الهجري هذه الحكاية :« كما عزم الصّاحب بن عبّاد على إملاء الحديث وهو وزير ، خرج يوما متطلسا متحنّكا بزى أهل العلم فقال : قد علمتم قدمى في العلم ، فأقرّوا له بذلك ، وأنا متلبّس بهذا الأمر ، وجميع ما أنفقته من صغرى إلى وقتى هذا من مال أبي وجدّى ، ومع هذا لا أخلو من تبعات أشهد الله وأشهد أنّي تائب إلى الله من ذنب أذنبته ، واتخذ لنفسه بيتا أسماه بيت التوبة ، ولبث أسبوعا على ذلك ، ثمّ أخذ خطوط الفقهاء بصحة توبته ثمّ خرج وقعد للإملاء وحضر الخلق الكثير ، وكان المستملى الواحد ينضاف إليه ستّه ، كلّ يبلغ صاحبه ، فكتب النّاس حتّى القاضي عبد الجبّار »[4] « وكان الإسفراييني أكبر أئمة الشافعية في القرن الرّابع الهجري طالبا فقيرا وكان يشتغل حمّالا»[5] ، وقد قيل إنّ من آفات العلم خيانة الورّاقين وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا و لم تكن حرفة التعليم تدرّ شيئا كثيرا فقد ذهبت طائفة كبيرة من الفقهاء كالحنفية جميعهم و أحمد بن حنبل وسفيان الثورى وغيرهما ، إلّا أنّه لا يجوز أن يتخذ المعلم أجرا عن تعليمه القرآن والحديث ، وأجاز ذلك آخرون ولكن كان يدفع للمعلم أجره أحيانا عدا المال أشياء ممّا يأكله النّاس وينتفعون به وذلك كانت " رغفان المعلم " مثلا يضرب في الإختلاف وشدّة التفاوت ، لأنّ رغفان المعلّم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقر ، والجود والبخل ، وقد أنشد الجاحظ للرقاشي في معلم:

---

[1] _ المرجع السابق ص 236.
[2] _ المرجع نفسه ص 237.
[3] _ المرجع نفسه ص 238.
[4] _ المرجع نفسه ص 243.
[5] _ المرجع نفسه ص 245.

« مختلف الخبر خفيف الرغيف منتشر الزاد لئيم الوصيف »

ولأنشد لأبي الشمقمق :

« خبز المعلم والبقّال منفق واللّون مختلف والطعم والصور »[1]

أمّا المعلمون الذين يؤدبون الأولاد في البيوت الغنيّة فكانوا أحسن حالا يقول الجاحظ : « يكون الرّجل نحويا عروضيا ..... وهو يرضى أن يعلم أولاد بسنين درهما ولو أنّ رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعاني ، ليس عنده غير ذلك لم يرضى بألف درهم.»[2] « وكان العلماء الكبار يأخذون أرزاقا من السلطان وكانوا فريقين فقهاء وعلماء وفريق ثالث أكثر رزقا وهم الندماء الّذين يجالسون الحضرة»[3] ويندر أن نجد في هذا العصر من العلماء من يتخذ صناعة أو تجارة يعيش منها إلى جانب العلم وأخيرا دخل علماء الإسلام في نهاية هذا العصر جملة العظماء وأصحاب الألقاب و في ذلك العصر ظهر لقب على سبيل التكريم وهو لقب شيخ الإسلام الّذي صار له شأن كبير فيما بعد ، وحتّى في ميدان الطب « شهد هذا القرن ازدهارا تمثّل في عدد الأطباء الكبير في بغداد وفي المستشفيات الكثيرة الّتي أنشئت فيها وكذلك في مستوى المهنة الّذي يصوّره أمر الخليفة عام 319ه بمنع جميع الأطباء من المعالجة.»[4]

وفي القرن الرّابع الهجري مرّ علم الكلام الإسلامي أو علم العقائد بأهمّ دور من أدوار حياته وهو دور تحرره من الفقه بعد أن ظلّ خادما له وكانت جميع كتب الكلام المعتبرة عند جمهور الأئمّة الإسلامية تتناول بعض الموضوعات الفقهية، وكانت المعتزلة أوّل فرقة إسلامية تحررت من نزعات الفقهاء كلّها. ومن جهة أخرى كانت الصوفية ألدّاء لجميع الفقهاء وقد عبّروا عن احتقارهم لعلم الفقه الّذي يسمّونه علم الدّنيا تعبيرا قاسيا. وأنّ الحركة الصوفية في القرنين الثالث والرّابع أوجدت في الإسلام ثلاثة مبادئ أثّرت فيه تأثيرا كبيرا وهي الثقة الوطيدة الكاملة بالله تعالى ، والاقتداء بالأولياء وإجلال النّبيّ محمد علية الصلاة والسلام ، ولا تزال هذه المبادئ

[1] _ المرجع السابق ص 248.
[2] _ المرجع نفسه ص 248.
[3] _ المرجع نفسه ص 249.
[4] _ أبو حيّان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم ، د. محمود إبراهيم ، ص 28.

الثلاثة أهمّ العوامل وأقواها تأثيرا في الحياة الإسلامية « ولكن نشأ في القرن الرّابع رسم جديد وهو الّذي يجيز للإنسان رواية الحديث من غير لقاء رجاله ومن غير إجازة مكتوبة تحوله حق الرواية وبهذا حلّت دراسة الكتب محلّ الأسفار التي كان يقوم بها طلّاب الحديث من قبل للقاء رجاله»[1]

« وأكبر محدّثي القرن الرّابع هما أبو الحسن علي الدارقطني ، والحاكم النيسابوري فمثلا ألّف الدارقطني كتابا في السنّة وكذلك ظهرت في القرن الرّابع الهجري كتب جديدة تعالج تصحيفات الحديث ومنها كتب الخطيب والدارقطني »[2] وفي هذا العصر ألّف الكرابيسي كتابا في أسماء الروّاة وألقى بهم وقد اعتبر هذا الكتاب أحسن الكتب قديمها وحديثها ، ويقال إنّ الخطابي هو أوّل من عيّن أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي الصحيح والحسن والضعيف وفي غضون القرن الرّابع الهجري كان أصحاب مذهب السنّة القدماء يحاربون الشيعة الّذين صعرّوا خدودهم لبغداد ويضيقون على متكلمي المعتزلة في سائر البلاد وحتّى يستعصي عليهم العيش ولكنّهم على الرغم من استهوائهم العامّة وإثارهم لهم لم ينجحوا في ذلك إلّا قليلا و لم يكن مذهب الأشعري قويّ في ذلك العهد. إلّا أنّه يروى عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلم أنّه وعد أمّته بقوله : « يبعث اللّه على رأس كلّ مائة سنة رجلا من أهل بيتي يبين لهم أمر دينهم. »[3] وقد أحصى العلماء المتأخرون هؤلاء " المجدّدين" الّذين يموت كلّ واحد منهم في أوائل قرنه ، وقد اختار العلماء في حوالي عام 400ه ثلاثة رشحوهم لهذه المهمّة ، وكلّهم لم يكونوا ذوي شأن عظيم وفي حوالي عام 300ه لم يقع اختيارهم إلّا على الأشعري المتوفي عام 343ه _ 936م ويدلّ هذا على قلّة العلماء بين جمهور أهل السنّة ، لأنّ أعظم مفكري الإسلام في ذلك العهد كانوا جميعا بين صفوف المعتزلة الّذين كانت تنبعث من عندهم جميع المسائل الّتي يعالجها المتكلّمون. ومن هنا يقول الأشعري: «قولنا الّذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها ، التمسك بكتاب الله وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلم وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمّة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه، أحمد بن حنبل ، ونظر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون ولمن خالف قوله قولا مجانبون، لأنّه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الّذي أبان الله به الحقّ عند ظهور الضلال.»[4] وصدر

[1] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، د. آدم متز ، ص 255.
[2] _ المرجع نفسه ص 257.
[3] _ المرجع نفسه ص 267.
[4] _ المرجع نفسه ص 272.

في بغداد كتاب آخر سمي الإعتقاد القادري وذلك في سنة 433ه _ 1041م وقرى في الدواوين وكتب الفقهاء خطوطهم فيه أنّ هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر»، وكان هذا أوّل اعتقاد رسمي يعلنه الخليفة ، وكان معنى ذلك نهاية تطور علم الكلام. ويستطيع الرجل الثّاقب أن يتبيّن في كلّ كلمة من هذا الإعتقاد جراثيم المنازعات التي مضت عليها قرون ، ونصّه قوله : «على الإنسان أن يعلم أنّ الله عزّ وجلّ وحده لا شريك له ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »[1]« ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك ، وهو أوّل لم يزل ، وآخر لا يزال ، قادر على كلّ شيء ، وغير عاجز عن شيء ، وإذا أراد شيئا قال له : كن، فيكون ، وغنيّ غير محتاج إلى شيء : « لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم » " يطعم ولا يطعم "، لا يستوحش من وحدة ولا يأنس بشيء ، وهو الغنيّ عن كلّ شيء لا تخلقه الدهور والأزمان، وكيف تغيره الدهور وهو خالق الدهور والأزمان ، واللّيل والنّهار ، والضوء والظلمة ، والسموات والأرض ، وما فيها من أنواع الخلق ، والبرّ والبحر وما فيهما ، وكلّ شيء حيّ أو موات أوجماد؟ كان ربّنا وحده لا شيء معه ، ولا مكان يحويه فخلق كلّ شيء بقدرته ، وخلق العرش لا لحاجته إليه ، فاستوى عليه كيف شاء وأراد لاستقرار راحة ، كما يستريح الخلق ، وهو مدبّر السموات والأرضين وهو مدبر مافيها ومن في البر والبحر ، لا مدبّر غيره ، ولا حافظ سواه ، يرزقهم ويمرضهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم ، والخلق كلّهم عاجزون ، والملائكة والنّبيّون والمرسلون والخلق والمبصر ببصر يعرف ضفتهما من نفسه ، ولا يبلغ كنههما أحد من خلقه ، ومتكلّم بكلام لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين ولا يوصف إلاّ بما وصف به نفسه أو وصفه به نبيّه عليه الصلاة والسّلام وكلّ صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهي صفة حقيقية لا مجازية ، ويعلم أنّ كلام الله تعالى غير مخلوق ، وتكلّم به تكليما ، وأنزله على رسوله عليه الصلاة والسّلام على لسان جبريل بعدما سمعه جبريل منه ، فتلاه جبريل على محمد وتلاه محمد على أصحابه ، وتلاه أصحابه على الأمّة ، ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقا ، لأنّه ذلك الكلام بعينه الذي تكلّم الله به، فهو غير مخلوق فبكلّ حال متلوا ومحفوظا ومكتوبا ومسموعا ، ومن قال إنّه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر ، حلال الدّم بعد الإستتابة منه ، ويعلم أنّ الإيمان قول وعمل ونيّة :قول باللّسان وعمل بالأركان والجوارح ، وتصديق به ، ويزيد وينقص ، يزيد بالطّاعة وينقص بالمعصية

[1] _ المرجع السابق ص 275.

وهو ذو أجزاء ، أرفع أجزائه لا إله إلّا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، والإنسان لا يدري كيف هو مكتوب عند الله ، ولا بماذا يختم له ، فلذلك لقول إنّه مؤمن إن شاء الله ، وأرجو أن أكون مؤمنا ، ولا يضرّه الإستثناء والرجاء ، ولا يكون بهما شاكّا ولا مرتابا ، لأنّه يريد بذلك ما هو مغيب عنه من أمر آخرته وخاتمته ، وكلّ شيء يتقرّب به إلى الله تعالى ويعمل لخالص وجهه من أنواع الطاعات فرائضها وسننها ونفائلها فهو كلّه من الإيمان منسوب إليه ، ولا يكون للإيمان نهاية أبدا ، لأنّه لا نهاية للفضائل وللتنوع في الفرائض أبدا ، ويجب أن نحب أصحاب النّبي صلّى الله عليه وسلم كلّهم ونعلم أنّهم خير الخلق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وأنّ خيرهم كلّهم وأفضلهم بعد رسول اللّه عليه الصلاة والسلام ، ثمّ عمر بن الخطّاب ثمّ عثمان بن عفّان ثمّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ونشهد للعشرة بالجنّة ، ونترحم على أزواج رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ومن سبّ عائشة فلا حظ له في الإسلام ، ولا نقول في معاوية إلّا خيرا ، ولا ندخل في شيء شجر بينهم ونترّحم على جماعتهم قال الله تعالى : « **وَالَّذِيْنَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِيْنَ سَبَقُونَا بِالْإِيْمَانْ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غَلًّا لِلَّذِيْنَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيْم** »[1] وقال أيضا :« **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِيْنَ** »[2] ولا يكفر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها ، فإنّه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ ، حتّى يخرج وقت الأخرى فهو كافر وإن لم يجحدها لقول النّبي عليه الصلاة والسلام : بين العبد والكفر ترك الصلاة ، فمن تركها فقد كفر ولا يزال كافر حتّى يندم ويعيدها ، فإن مات قبل أن يعيد لم يصل عليه وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبا ابن خلف. وسائر الأعمال لا يكفر بتركها ، وإن كان يفسق حتّى يجحدها ، ثمّ قال : هذا قول أهل السنّة والجماعة من الّذي تمسّك به كان على الحق المبين ، وعلى منهاج الدّين والطّريق الواضح ورجى به النّجاة من النّار ودخول الجنّة إن شاء الله وقال النّبي عليه الصلاة والسّلام :« الدّين النّصيحة ، قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمّة المسلمين وعامّتهم ، وقال عليه السّلام : أيّما عبد جاءته موعظة من الله تعالى في دينه فإنّها نعمة من الله ، فإن قبلها بشكل ، وإلاّ كانت حجّة عليه من الله

[1] _ سورة الحشر الآية 10.
[2] _ سورة الحجر الآية 47.

تعالى ليزداد بها إثما ويزاد بها من الله سخطا ، جعلنا الله لآلائه شاكرين ولنعمائه ذاكرين وبالسنّة معتصمين ، وغفر لنا ولجميع المسلمين»[1] قال تعالى : « **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** » « فقد كرّه للنّبي صلّى اله عليه وسلّم الشعر ونزّهه عنه بلا شبهة ، وهذه الكراهة وإن كانت لا تتوجه إليه من حيث هو كلام ، ومن حيث أنّ بليغ بيّن وفصيح حسن ونحو ذلك.»[2] لو لم يكن القرآن هو حافظ اللّغة العربية لتغيرت كثيرا عمّا هي عليه الآن ، ولو فرضنا أنّ كتب التوراة أو الإنجيل أو القرآن أنزلت بلغات أخرى غير ما أنزلت به فعلا لوجدنا هذه اللّغات مستعملة حتّى يومنا هذا على أيّة درجة من الدرجات أو أيّة صفة من الصفات.« إلّا أنّ أهمّ وأقوى عامل للمحافظة على أيّة لغة في العالم وانتشارها هو الدّين المرتبط بها.»[3]

« وقد استلزمت العادة في بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البيزنطية أن تهيأ هذه البيوت بالخصيان وقد حرّم الإسلام ذلك وشدّد القرآن وشدّدت السنّة في تحريم خصاء الإنسان أو البهائم إلّا أنّ هناك عادات شرقية قديمة دخل على الإسلام رغم ما جاء به النّبي صلّى الله عليه وسلم في شأنها من الإنكار والمنع الصريح.»[4] أمّا في القرن الرّابع الهجري فقد « اختلفت آراء الفقهاء في اللواط بالغلمان اختلافا بيّنا فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم »[5] إلّا أنّه شاع واستقرّ في هذا القرن « وظهرت عادة في هذا العصر سمل الخلفاء الخلفاء للحيلولة دون تبوئهم منصب الخلافة وذلك احتذاء لعادة الرّوم البيزنطيين من قبل وكان أوّل من ذاق هذا العذاب بين خلفاء الإسلام الخليفة القاهر حينما أرسل إليه القضاة والشهود ليقرّ على نفسه بالخلع فأبى أن يحلّ النّاس من بيعته.»[6]

وأخيرا تبيّن لنا في الحركة العلمية والأدبية عدّة ظواهر منها « استكمال العلوم ممّا تقدّم أسباب النضج والنماء فظهر ذلك جليّا في المعاجم اللّغوية والفلسفة والطب والطبيعيات والتاريخ

---

[1] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّبع للهجري ، د. آدم ميتز ص 275_276_277

[2] _ دلائل الإعجاز تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي دار المدني بجدة مطبعة المدني ، ط3: 1413ه _ 1996م ص 64.

[3] _ مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء ، د. أحمد بن نعمان ، شركة دار الأمّة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1 : 2008م ، ص 181.

[4] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، د. آدم متز ، ص 105.

[5] _ المرجع نفسه ص 111.

[6] _ المرجع نفسه ص 132.

والسياسة والاقتصاد والنحو والبلاغة سواء فيما دوّنوه أو فيما نقلوه عن اليونان والفرس والهنود. وانتهاء تطور النثر الفنّي إلى أسلوب خاص إذا امتاز أكثر كتابه بافتنانهم في التعبير واحتفالهم باللّفظ إضافة إلى ذلك ظهور القصص والمقامات وكثرة المكتبات العامّة والخاصّة حيث ازدهر المذهب الشيعي لأنّ آل بويه في الشرق كانوا شيعة ممّا شاعت في العالم الإسلامي مذاهب شتّى في القرن الرّابع الهجري وظهور شخصية العواصم والمدن واضحة في نسبة علمائها وأدبائها حتّى أصبحت اللّغة العربية هي لغة الأدب والحكومة في ذلك العصر وقد خلقت هذه العواصم المستحدثة مثل بغداد التي صارت قبلة للأدباء والعلماء.»[1] ومن الملامح الثقافية لهذا العصر « أنّ الضعف السياسي الّذي اعترى كيان الدولة العبّاسية لم يكن موازيا للتيّارات الثقافية بل بدا الاتجاه عكسيا فبقدر ما كان التفوق السياسي كان الازدهار الفكري حيث ازدهرت النّوادي الثقافية والمجالس التعليمية وكانت موارد هذا العصر ثرية خصبة لونت التردّي السياسي والاجتماعي بإصباغ أدبية وعملية لا تزال آثارها بارزة في هذه الحقبة. والعوامل التي أزهرت الثقافة في هذه الفترة عديدة قد يكون في طليعتها. بذل المزيد من العناية بالنّثر واعتباره الأداة الأوفق في تدعيم الأركان الثقافية واكتمال الترجمة بعد أن مرّت بعدّة تجارب ومحاولات أثمرت طريقا واضحا ومقاييس ثابتة. وكان لهذه التراجم الدور الأكبر في إثراء الفكر العربي وتعميقه وتحريك الذهنية الراكدة وتنشيط المذاهب الدّينية والنحل المختلفة وإخضاع شتّى الفلسفات للدفاع عن آرائها أو إخضاع الدّين لهذه العلوم المستحدثة في الإمتاع والمؤانسة ، وهو وثيقة ذلك العصر الأمينة إذ يروي التوحيدي نماذج من هذا النشاط والاحتكاك الفكري والتفاعل الثقافي ونشّط في هذا العصر بالخصوص علم الكلام الّذي يمثّل قاعدة الفلسفة العربية وقد أخذ من المنطق طرق الدفاع والجدل ومن الفلسفة التفكير الذهني المجرّد فكان كلّ أديب يبحث عن نفسه وسط البلاط ويسعى للهيمنة العقلية والقيادة الفكرية على مجموعة الأدباء ومن هنا كانت جدّية الدراسة وفائدة الصراع كما كان كلّ وزير يسعى جاهدا لجلب الشخصيات الأدبية فشاعت في هذا العصر التأليف المهداة إلى الأمراء والوجهاء بل كانت بعض الكتب تؤلف لرغبة شخصية ، وفي هذا القرن نشأ مشاهير الفكر العربي وطوّفوا بين مختلف الإمارات بحثا عن الرزق متكسبين ببضاعتهم الفكرية المختلفة ، وكان الشرط الضمني لتولي الوزارة حذق الأدب والتمرس بصناعة الترسل فكانوا حلقة اتصال بين

[1] _ أبو حيّان التوحيدي، د. أحمد محمد الحوفي ، ص 40_ 41_ 42_43

الأدباء وكانوا محرّكي الحركات الأدبية وقد ساهمت الدولة البويهية بجهد كبير في الميدان الثّقافي فالأمراء البويهين رغم عصبيتهم وجهل الكثير منهم للّغة العربية.»[1] إلّا أنّهم شجّعوا التيار الفكري واللّغوي في هذا العصر « فكانت عندهم لغة الأدباء والشعراء ولم يقفوا عند هذه الخطّة بل شجّعوا الأدباء والشعراء والمفكرين وجعلوا لهم مجالس علمية وثقافية ممّا أدّى إلى الدفاع عن الثقافة العربية والرفع من شأنها وتنشيط حركة الترجمة والفلسفة. ولعلّ الشاهد الكبير على نضج هذا العصر كتابي التوحيدي الإمتاع والمؤانسة والمقابسات فقد كانا مذكّرات العصر الثقافية وهذا يدلّ على تفتق العصر وانفتاح الثقافة العربية على غيرها من الثقافات الأخرى ، واشتهر ابن مسكويه بالبحث الأخلاقي وهو أوّل مسلم يبحث علميا في فلسفة الأخلاق. ومن حقّ القرن الرّابع الهجري أن يوصف في غير مبالغة بأنّه أغنى القرون السابقة معرفة وثقافة وأكثرها علماء وأدباء وفلاسفة وأغزرها إنتاجا وأعظمها ابتكارا.»[2] والحق يقال :« إنّ العصر العبّاسي عامّة والقرن الرّابع منه خاصة كان من أزهى العصور الإسلامية علما وأدبا وحضارة إذ نضجت فيه مواهب العربي التي تفتحت على أثر احتكاكه بالثقافة الهندية والفارسية واليونانية فعمل على استيعابها وهضمها وأنشأ منها مجتمع ثقافة جديدة وحضارة إسلامية خلّدت على مرّ العصور.»[3]

والخلاصة أنّ كلّ هذا لا يمكن للإنسان أن يدركه إلّا بالبحث والدراسة وإعمال الفكر والتعمق في العلم وقوة الله وسلطانه قال تعالى :« **يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلّا بِسُلْطَانٍ** »[4] ومن مقوّمات الحضارة الإسلامية هو القرآن والسنّة لقوله تعالى:« **وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُومِنُون**»[5]فإنّ الحضارة العربية الإسلامية بالتالي مبنية أساسا على العلم الذي هو أهمّ خصائصها ونزعتها وإذا كانت الحضارة بنت العلم ، والعلم هدفها في الوقت نفسه يسعى المسلم

[1] _ الأديب والمفكر أبو حيّان التوحيدي، تأليف علي دب ، الدار العربية للكتاب ، ط2 ، ص 20_ 21 _ 22.
[2] _ المرجع نفسه ص 24 _ 25.
[3] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " د, محمد علي الصبّاح ، ص 16.
[4] _ سورة الرحمن الآية 33.
[5] _ سورة الأعراف الآية 52.

إلى تحقيقها من واقع كتابه الذي أخذ به ، وتعاليم رسوله صلّى الله عليه وسلم الذي اهتدى بها فليس ثمّ شك في أنّ العلم يدفع إلى الاكتشاف والتفكير والتدبر الذي يبني حضارة وينشئ معرفة.[1]

[1] _ معالم الحضارة العربية الإسلامية : مدخل _ نظم _ علوم _ زراعة وصناعة _ اجتماعيات _ عمارة وفنون _ تأثيرات _ ، د. اسماعيل سامعي ، ديوان المطبوعات الجامعية 10_ 2007م الجزائر ، ص 161.

المبحث الثّاني: الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر

من رحم المعاناة التي نعيشها كمسلمين وعرب ، رحت أبحث عن الدوافع التي تجعل الغرب يفعل بنا ما يفعله على مستوى الإنسان والأرض واستغرق بحثي هذا فترة عشت نهارها وليلها مع صفحات ما كتب قديما وحديثا حول العلاقة التي قامت بين المسلمين العرب وبين الغرب ، من بداية الفتح الإسلامي العربي لبلاد الشام ومصر ، وحتّى خروجهم من الأندلس (إسبانيا حاليا) وركّزت خلال مطالعتي على ما كتبه أبناء الغرب عن تلك الفترة من حيث العلاقات بين الأمم ، ومن بينها علاقة الحضارة الإسلامية العربية بالغرب ، فوجدت العجب العجاب ممّا قدّمه العرب الذين أفاء الله عليهم بنور الإسلام من خدمات جلّى ومن أياد بيضاء أزاحت ظلمة اللّيل الطويل عن حياة أوروبا بفضل ما قدّموه لهم من علوم ومعارف شملت كل مناحي الحياة من إنسانية ورياضية وفلكية وفنّية وخلقية وفروسية.

خرجت شعوب أوروبا بفضل هذه العلوم وهذه المعارف من الجهل والتخلف وياللأسف الشديد لم يكافئ الغرب المسلمين العرب رغم كلّ ما أعطوا ورغم كل ما قدّموا ، وإذا كان من الصعب علينا أن نحيط بالمجالات التي تأثرت فيها النهضة الأوروبية بمنجزات الحضارة العربية الإسلامية، فإنّه ليس من السهل علينا أيضا أن نحدد المجالات التي لم تتأثر فيها النهضة الأوروبية بالحضارة الإسلامية وذلك لأنّ مجالات الحياة العلمية والثقافية منذ القدم معقّدة ومتشابكة لدرجة يصعب معها الفصل بين عناصرها المتلاحمة.ولهذا فإنّنا سنكتفي بالتوقف عند بعض المحطات التي كان التأثير فيها واضحا بيّنا لايحتاج كشفه إلى اجتهاد أو تأويل ومن ذلك على سبيل المثال التأثير الواقع في علوم الرياضيات والفلك أو في علوم الطب والصيدلة أو في الأدب والفلسفة فهذه المجالات وغيرها يبدو فيها التأثير والتأثر واضحين لدرجة لا يستطيع معها أحد أن ينكرهما.« لقد سلكت الحضارة الإسلامية في طريقها إلى أوروبا واجتيازها الفكر الإسلامي بمختلف عناصره الأدبية والعلمية والفلسفية ثلاثة معابر رئيسية كبرى هي الشرق في زمن الحروب الصليبية وصقلية

حيث نشأت دولة عربية ، ظلّت حضارتها قائمة بين الصقليين زمنا طويلا بعد زوال تلك الدولة والأندلس زمن الخلافة الأموية.»[1]

لقد بالغ كتّاب القرن التاسع عشر في أهمية الحروب الصليبية وبلاد الشام كطريق نفذت منه الحضارة الإسلامية إلى الغرب التي « كانت ذات أثر فعّال في هذا الميدان غير آخذين بالإعتبار أنّ الصليبين قصدوا بلاد الشام بما تتصف به عادة حياة الجند من فضاضة وخشونة ، ومن خلال استعراض الفترة التي بقي فيها الصليبيون في بلاد الشام نجد أنّ حدّة الإقتتال لم تخفّ يوما من الأيّام بينهم وبين المسلمين إلّا بعد أن تمكّن المسلمون من طردهم نهائيا من بلاد الشام عام (689هـ_ 1291م) وإذا حدث وخفّت حدة الحروب بين المسلمين والصليبين فترة من الزمن إلّا أنّها كانت تتجدد بعد قليل.»[2]« كذلك أثّرت الحروب الصليبية في تطور فن الحرب عند الغربيين ، ولا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع ذات الحوائط المزدوجة هذا بالإضافة إلى ما أدّت به الحروب من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق واسخدام الدروع للفرسان وخيولهم ، والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل.»[3]« ومن المحتمل أن يكون الشرق الإسلامي إبّان الحروب الصليبية هو المصدر الذي أخذ عنه الغرب الأوروبي ألعاب المبارزة التي تشبه كثيرا ألعاب الجريد _ التحطيب عند الشرقيين. كذلك نلاحظ كثرة استعمال الشارات والرنوك في الغرب الأوروبي نتيجة للإتصال بالغرب في الشام.»[4] وهكذا نجد أنّه لم تتم للصليبيين في بلاد الشام « حياة الاستقرار الضرورية لمباشرة النّشاط الفكري والحضاري ، ولم تتح لهم فرصة الإتصال السلمي بمسلمي بلاد الشام بالقدر الذي أتيحت لإخوانهم الأوروبيين في صقلية والأندلس.»[5]

صحيح أنّ الصليبيين « استطاعوا أن يقيموا أربع إمارات في كلّ من الرها وأنطاكية وطرابلس والكرك ومملكة في بيت المقدس ولكنّ هذا لم يكن سوى وحدات صليبية دخيلة لم

---

[1] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فارق الإمام ، دار المأمون للنشر والتوزيع العبدلي عمارة جوهرة القدس ، ط1: 1329ه- 2007م ، ص 39.

[2] _ المرجع نفسه ص 39.

[3] _ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، دار الفكر ، دمشق ساحة الحجاز ، ط1 : 1399ه_1979م ، ط2: 1401ه _ 1981م ، ص 119_ 120.

[4] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق الإمام ، ص 42.

[5] _ المرجع نفسه ص39

يستطع أهلها رغم كلّ السنين الطويلة التي بقوا فيها أن يحتكّوا بأبناء البلاد أو يتعاونوا معهم.»[1] حيث يتساءل " آرنست باركو" قائلا :«... أنّه حتّى لو توافرت مقومات الحياة العلمية للصليبيين الذين أقاموا في بلاد الشام فأين لهم بالعلوم التي يأخذونها؟ ذلك أنّ عصر الحروب الصليبية بالذات امتازت بنوع من النضوب الفكري في بلاد المشرق الإسلامي فقلّ الإقبال على الفلسفة بوفاة ابن سينا عام 1037م والغزالي عام 1111م ، بل إنّ الخليفة العبّاسي المقتفي في بغداد أمر عام 555ه/ 1150م بإحراق الكتب الفلسفية ومن بينها مؤلّفات ابن سينا نفسه. فهل كان ينتظر في مثل هذه الظروف أن يستطيع رسل الغرب الإستفاذة من المسلمين وعلومهم؟ »[2]

ولا بد أن نشير إلى أنّ الحروب الصليبية صحبها بعض النّشاط الفكري والحضاري ذلك أنّه وجد من الغربيين الذين استقرّوا في الأراضي المقدسة من كتب في التاريخ مثل : وليام الصوري أوفي القانون مثل حنّا الإبليني وفيليب نافاري.»[3] ولّما كان حديثنا محصورا في انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب وقنوات انتقالها لذا نكتفي بذكر بعض المؤثرات الإسلامية في الحياة الأوروبية العامّة نتيجة لنمو التبادل التجاري « فهناك نباتات وحاصلات زراعية وأشجار نقلها الصليبيون عبر حملاتهم على الشرق الإسلامي إلى بلادهم مثل : السمسم والأرز واللّيمون والبطيخ والثوم كما نقلت أنواع من العقاقير والسباغ والتوابل ، أيضا أقبل الصليبيون على استعمال الأقمشة والملابس العربية والتي احتفظت بأسمائها العربية في اللّغات الأوروبية.»[4]

« صقلية وهي المعبر الثاني الذي انتقلت عنه حضارة الإسلام إلى غرب أوروبا حيث غدت هذه الجزيرة قاعدة للحضارة الإسلامية وصار للثقافة الإسلامية شأنا كبيرا في العصور الوسطى ، وكلّنا نعرف أنّ جزيرة صقلية كانت قد خضعت من القرن الخامس إلى الثامن للدولة الرومانية الشرقية ، ثمّ فتحها العرب في عام 730م ثمّ عزاها النورمانيون في سنة 1087م ، وكان من أثر تعاقب غزو الجزيرة أنّ تأثر سكّانها بعادات ولغات المغيرين ،كما تأثر الفن بطابع هذه الشعوب ، وكان للعرب تأثير فنّي كبير على المباني التي وصفت بأنّها عربية –نورماندية»[5] فبعد أن ثبّت

1_ المرجع السابق ص 40.
2_ المرجع نفسه ص 42.
3_ المرجع نفسه ص 41.
4_ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص 120.
5_ المرجع نفسه ص 120.

المسلمون أقدامهم في صقلية في القرن التاسع الميلادي اهتمّوا بالزراعة ، فحفروا الترع والقنوات ، وأنشاؤا المجاري المعقوقة التي كانت مجهولة قبلهم ، كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر »[1]، ويظهر الطراز العربي في كنائس النورمانديين الذين دخلوا الجزيرة بعد العرب ، ومنها كنيسة القديس "جيوفاني" في مدينة بالرمو وهي ذات قباب حمراء ، نصف كروية ، كما تظهر الأقواس المدببة والزخارف العربية الدقيقة في قصور الملوك النورمانديين في مدينتي بالرمو – ومونديال»[2]

« لقد بلغت بالرمو عاصمة صقلية في العهد الإسلامي مبلغا واسعا من التضخم في السكّان وفي المساجد 300ألف نسمة ونيف وثلاثمائة مسجد.»[3] ولّما سيطر العرب على كريت شرقا وصقلية ومالطة وقوصر في الوسط وجزر البليار غربا ثمّ على جزيرة سردينيا وقبرص ثمّ للعرب السيطرة التّامّة على البحر المتوسط وحقّقت هذه السيطرة للعرب أغراضا دفاعية : فكانت طرطوس وقبرص تحميان شواطئ سوريا وكانت كريت تحمي مصر كما تحمي صقلية شمال إفريقيا وتحمي جزر البليار الأندلس . ولّما كانت طبيعة صقلية تتكون من مرتفعات وهضبات وتحتل مدنها الأجزاء العالية ، ممّا جعلها حصينة ، عنيدة أمام كل فتح ، واتّسمت بسمتين كان لهما أثرهما في تاريخها بصفة عامّة. فالسمة الأولى موقعها البحري والثّانية توسطّها بين إفريقيا وأوروبا وهي لهذا ملتقى حضارات جمّة فينيقية ، ويونانية ، ورومانية وقوطية وبيزنطية وعربية.»[4]« و لم يبق الآن في الجزيرة من آثار المسلمين سوى القليل النّادر ولكنّها تشهد جميعها بالروعة والجمال الأخّاذ. فقد وصف الإدريسي عاصمة بالرمو على عهد روجر الثاني أي بعد زوال حكم المسلمين لها بنّها مليئة بالقصور والدور والمتنزهات التي مازالت شامخة تحكي حضارة المسلمين فيها.»[5]

وهكذا يبدو لنا الفارق العظيم إذا ما قارنا بين أحوال جزيرة صقلية من النواحي العمرانية والاقتصاديةوالاجتماعية بعد أن فتحها المسلمون واستقرّوا بها وبين أحوالها بعد إخراجهم منها ، و لم تنته الحضارة الإسلامية بانتهاء حكمهم للجزيرة ، فقد وجدت الحضارة من ملوك النورمان الذين استولوا عليها فيما بعد خير مشجع لها. فقد قام هؤلاء لملوك بحماية المسلمين الذين بقوا في

1_ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 43.
2_ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص 120.
3_ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، د. محمد فاروق أحمد الإمام،ص43
4_ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص121.
5_ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 43.

صقلية ، كونهم لمسوا منهم تقدما في الفنون و العلوم و الصناعات ، و أدركوا أنّ تشجيع الجالية الإسلامية في الجزيرة سيعود عليهم بفوائد عظيمة.ممّا جعل روجر الأوّل يشمل المسلمين برعايته ، ويحسن المحافظة عليهم وحمايتهم فقد كتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية. وامتازت النقود التّي صكّها هذا الملك بأنّ نصفها جاء مكتوبا عليه بالعربية والنصف الآخر باللاتينية كما أنّ بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية. وقد سار خلفاء روجر على سنّته ، فاستعان روجر الثاني بعلماء المسلمين كما درس وليام الثاني اللّغة العربية ورجع إلى مستشاريه في أهمّ شؤونه. ويوجد في نورمبرج رداء من الحرير اعتاد أن يلبسه ملوك صقلية وهو مطرّز بكتابات عربية كوفية الخط، يرجع تاريخها إلى عام 1133م. كذلك اتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حرّاسا من العرب ارتدّوا زيّا اختلف عن حرّاسهم من النورمان.»[1]« وترك العرب أيضا ألفاظا عربية ، في اللّغة الصقلية والإيطالية ولا تزال مدن وأماكن كثيرة من صقلية تحمل أسماء عربية ، لاسيما أسماء القلاع والمراسي والشوارع.»[2]

« وفي بالرمو الآن قصران جليلان من مباني العرب : أحدهما قصر القلّة ، والآخر قلعة الجزيرة. وقد تحدّث الرحّالة العربي الشهير ابن جبير عن آثار العرب في صقلية ، وخاصّة مساجدهم ، وأسواقهم ، ويذكر أنّ وليام ملك صقلية الذي سمّاه غليام كان شديد الثقة بالمسلمين إلى حدّ بعيد.»[3] يقول عنه : وهو كثير الثقة بالمسلمين ، وساكن إليهم في أحواله ، والمهمّ من أشغاله ، وله جملة منهم هم أهل دولته وخاصة ، وعليهم يلوح رونق مملكته»[4] ومن أغرب ماذكره « ابن جبير عن هذا الملك ، معرفته باللّغة العربية قراءة وكتابة وأنّ شعاره " الحمد لله حق حمده " وكان شعار أبيه " الحمد لله شكرا لأنعمه " »[5] تحدث رينالدي عن التأثيرات العربية في جزيرة صقلية فقال : « إنّ الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في الإيطالية التي تفوق الحصر ، دخلت اللّغة الإيطالية لا بطريق الفتح العربي ، بل بطريق الحضارة ، التي كثيرا ما تؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة.»[6] وأثبت أماري المستشرق الصقلي أنّ « صقلية مدينة للعرب بحضارتها ،

---

[1] المرجع السابق ص 44.- 45.
[2] أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص 123.
[3] المرجع نفسه ص 124.
[4] المرجع نفسه ص 124.
[5] المرجع نفسه ص 124.
[6] المرجع نفسه ص 124.

كما أنّ ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة العربية ، ، وقد أدّى هذا إلى ابتكار الشعر الوطني. ومنذ ذلك الحين ، بدأت العناية بقرض الشعر ممّا أدّى إلى نهوض الشعر الإيطالي. »[1] ويكمل رينالدي هذا الحديث فيقول : « لم يساعد العرب على إنهاض الشعر الصقلي والإيطالي ، بل إنّهم أمدّوا قصصنا بشكلها ومادتها وهذا مايؤيد ما يذهب إليه بعض المفكرين من أنّ دانتي الشاعر الإيطالي ، اقتبس موضوع الكوميديا الإلهية من رسالة الغفران للمعرّي.»[2]

إنّ النفحة العربية التّي هبّت نسماتها الزكية على ديار الإيطاليين ، علّمتهم كيف يسلكون سبل الحياة الكريمة ، وعلّمت أبنائها القراءة والكتابة ، وشتّى العلوم ، بعد أن كانوا أمّيين ، وعلّمتهم الصناعات المختلفة ، وأصول الزراعة والحياكة وشاركهم العرب في ضروب التجارة التي درّت عليهم الثروات الطائلة . والزائر اليوم للمكتبة الكبرى في الفاتيكان بمدينة روما بإيطاليا ، يجد الألوف المؤلفة من الكتب الخطّية القديمة وهي كلّها من تأليف علماء العرب كما أشاد ديبل بالحكم العربي في صقلية فقال : « إنّ العرب حملوا معهم إلى صقلية ، مظاهر فنّهم ، وقناطرهم العالية الجميلة ، وفسيفسائهم المعمولة من الرخام الملوّن ، بصورهم الجميلة وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه الزمن فيما بعد »[3]«كما اهتمّ الولّاة العرب بالإصلاحات ونشروا ألوية العدل وعنوا بحفر الترع وترقية الزراعة ، فزادت ثروة سكّانها ، وعمّت فيها الخيرات ، وظلّ العرب المسلمون لا يمتازون عن الأهالي الأصليين بشيء فكلّ منهم يمارس شعائر دينه ، ويتبع أسلوب معيشته ، بل إنّ نساء صقلية تشبهن بنساء العرب ، فانتقبن النقب الملوّنة ، وانتعلن الأخفاف المذّهبة ولبسن الحرير الموشّى بالذهب ، وتزيّن بكل ما تزيّن به المسلمات.»[4]

وفي الأخير يقول المستشرق الكبير ميكيله أماري :« ...أنّه لو زادت معرفتنا بالشعر العربي في صقلية لأصبح من المحتمل أن نكشف عن صلات وثيقة بينه وبين الشعر الإيطالي القديم الذي نشأ في أواخر العصور الوسطى.»[5] ويقول أيضا :« إنّ الباعث على ممارسة الشعر باللّغة

---

[1] _ المرجع السابق ص 124.
[2] _ المرجع نفسه ص 125.
[3] _ المرجع نفسه ص 125.
[4] _ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص 125.
[5] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 46.

العامية في صقلية هو علم أهلها بأخبار العرب وشعرائهم ، وما كانوا يلقونه من تشجيع من الأمراء المسلمين.»[1] وليس هناك من شك في أنّ الشعر العربي كان يشيد في بلاط ملوك صقلية النورمان ، فقد صدح الشاعر العربي بصوته في قصر الإمبراطور فريديريك الثّاني في القرن الثّاني عشر الميلادي وهو الإمبراطور الذي سمّته بعض الكتب نصف شرقي. وقد بلغ من ولعه بالعلوم الرياضية أن أقنع سلطان مصر الكامل بأن يبعث له أحد الرياضيين الذائعي الصيت. وكان شغوفا بالإطّلاع في جميع العلوم ، فكان يبعث بالأسئلة العلمية والفلسفية إلى العلماء المقيمين في بلاطه وإلى غيرهم في البلاد النائية كمصر ، وبلاد المغرب والشام والعراق. ويقول ديورانت في هذا المجال:« ويبدو أنّ اتصال فريديريك الوثيق بزعماء المسلمين ومفكريهم قضى على عقيدته المسيحية. وقد افتتن بعلوم المسلمين ورآها أسمى قدرا من أفكار المسيحيين ومعارفهم.»[2] ويقال عنه: « إنّه يوافق على شريعة محمد ويؤمن بها أكثر من إيمانه بشريعة المسيح (....)وصداقته للمسلمين أقوى من صداقته للمسيحيين.»[3]

ومهما يكن من أهمية الدور الذي أسهمت به كلّ من بلاد الشام وصقلية في تغذية أوروبا بأصول الحضارة العربية الإسلامية ، فإنّ الفضل الأكبر يرجع بلا شك إلى العرب المسلمين في الأندلس ، الذين قدّموا خلاصة الفكر الإسلامي في العلوم والآداب والفلسفة إلى أوروبا، فضلا عن تعريف الغرب بكثير من تراث اليونان القديم الذي زال من الوجود و لم يبق إلّا في التراجم العربية. و لم تكن اسبانيا عندما فتحها المسلمون العرب في أوائل القرن الثامن الميلادي تختلف عن بقية بلاد الغرب الأوروبي المعاصرة ، من حيث انتشار الجهل والتخلف والفوضى بسبب النزاعات الاجتماعية والفتن الداخلية. ولعلّ من أكبر مظاهر هذا الإنحلال والإنقسام أنّ "يوليان" أحد كبار الأمراء الأسبان شارك مع رئيس أساقفة أشبيلية في مساعدة المسلمين في فتح اسبانيا إضافة إلى توسلات اليهود للمسلمين أن يسارعوا في فتح اسبانيا ليخلّصوهم من ظلم ملكوها حيث يقول ديورانت:« لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل كما نعمت به في أيّام الفاتحين العرب.»[4] ويقول أيضا :« .... وما من شك في أنّ حكمها كان أفضل من حكم من سبقوهم

---

[1] _ المرجع السابق ص 46.
[2] _ المرجع نفسه ص 46.
[3] _ المرجع نفسه ص 46.
[4] _ المرجع نفسه ص 48.

من القوط الغربيين ، ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشؤون العامّة في العالم الغربي ، فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النّظام وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدي موظفين منهم وكان في المدن شرطة تسهر على الأمن فيها وقد فرضت على الأسواق ، والمكاييل ، والموازين ، رقابة محكمة ، وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكّان والأملاك في فترات منظّمة ، وكانت الضرائب محقولة إذا فورنت بما كانت تفرضه روما أو بيزنطة وبلغت الإيرادات في أيّام عبد الرّحمان الثالث (000، 45، 12) دينار ذهبي أي ما يعادل (750 ، 213 ، 57) دولارا أمريكيا وأكبر الظنّ أنّ هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة ولم يكن مصدر هذا الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثرا من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ورواج التجارة.»[1]

وقد انتقلت الأندلس بعد أن فتحها المسلمون من حالة التردّي التي كانت تعيشها إلى مرحلة جديدة من بعد أن فتحها المسلمون من حالة التردي التي كانت تعيشها إلى مرحلة جديدة من الاستقرار ،« حيث اتجه المسلمون نحو إحياء الأرض الميتة وتعمير المدن الخربة ، وتنشيط التجارة الراكدة ، وإنعاش الصناعة المتأخرة ، حتّى غدت الأندلس في ظلّ الخلافة الأموية أغنى البلاد الأوروبية وأكثرها ازدحاما بالسكّان.»[2] واختار المسلمون أن يوطّدوا سلطانهم في اسبانيا عن طريق العلم. ولو يلبث أن اشتد إعجاب الإسبان بثقافة المسلمين وحضارتهم ، كما يتضح ممّا ذكره الكاتب المسيحي المتعصب في القرن التاسع الميلادي فقد كتب يقول :« إنّ إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ، لا لتنفيذها بل لتعليم أسلوب عربي بليغ. وآه أسفاه! إنّني لا أجد اليوم علمانيا يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل ، بل إنّ الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علما ولا أدبا ولا لغة إلّا العربية! ذلك أنّهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبّذونها.»[3]

---

[1] _ المرجع السابق ص 48.
[2] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 49.
[3] _ المرجع نفسه ص 51.

ومن المفيد أن نعرف أنّ سكّان الجزيرة الأندلسية أقبلوا على الإسلام طواعية ليدخلوا في دين الله أفواجا ، حتّى غدت الأندلس جزيرة إسلامية عاش أهلها الأصليّون الذين دخلوا الإسلام مع الفاتحين المسلمين إخوانا ، حتّى أصبح الجميع سواء دون تمييز امتثالا لقوله تعالى :«إِنَّماَ الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَة...»[1] ومن هنا نتلمس الفارق بين ما كان عليه الحال عند الفاتحين المسلمين وبين ما فعله الغربيّون عندما دخلوا أمريكا كيف ذبحوا السكّان الأصليين حتّى الذين دخلوا دينهم ، وكذلك فعلوا بسكّان أستراليا الأصليين نفس الشيء ، في حين جعلوا من سكّان جنوب إفريقيا الأصليين عبيدا وعاملوهم دون معاملة الكلاب!« وهكذا كانت الأندلس كلّما تقدّم الزمن فيها نجد الإسلام مستمر بالانتشار في أرجائها ولكنّه انتشر بفضل الله بقوّته الذاتية التي حقّقت المثل الإنسانية الفريدة، وبقي يمدّها بالحياة والحركة ، فالإنسان به غنيّ وبغيره فقير مدقع. واستمرّ شعاع الحضارة الإسلامية مضيئا في سماء الأندلس ليمتدّ نوره إلى غرب أوروبا في القرنين الثّاني عشر والثالث عشر الميلادي ومابعدهما ولقد ساعد على انتقال حضارة عرب الأندلس إلى الغرب سياسة التسامح التّي اتّبعها المسلمون من منطلق أنّ العلم حق لكلّ النّاس كافّة دون تمييز كحقهم في الماء والكلأ والنّار لا يجوز حجبه عن أحد. ممّا كانوا اليهود يساعدون الإنخراط في دراسة اللّغة العربية على يد الأساتذة المسلمين. ووجود مدرسة كبيرة من غير المسلمين كان لأفرادها دور القيام بوظيفة السفراء بين الأندلس وغرب أوروبا. ولقد ظنّ الحاقدون أعداء الإنسانية والعلم أنّ في عملهم الإجرامي والبدائي وغير الحضاري يستطيعون محو آثار الحضارة الإسلامية بالأندلس.»[2] فقد فات أمثال هؤلاء الهمج أنّ ما تركه العرب المسلمون من مدن عامرة بالقصور الفارهة ، والمساجد الشامخة بقبابها ومآذنها ، والطرق المعبدة ، والمشافي الراقية، والفنادق الزاهية ، والحدائق الغنّاء وقنوات المياه المنظّمة ، وأساليب الريّ المتطورة كان كلّ هذا كفيل بتخليد العرب المسلمين. ونكتفي في هذا السياق أن ننقل شهادة " جوستاف لوبون " حيث يقول :« إنّه لا يوجد في إسبانيا المعاصرة من أعمال الريّ سوى ما أتمّه العرب.»[3]

---

[1] _ سورة الحجرات الآية 10.
[2] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 52 _ 53.
[3] _ المرجع نفسه ص 56.

وفي شبه جزيرة الأندلس التي كان الرّمان يحكمونها ، منذ عصور سحيقة في القدم ، فإنّ ثاني قياصرتهم ، أصدر أمرا بتشييد المدن في الجزيرة الإيبرية ، وبعث لهذا الغرض أربعة من أقطاب مملكته لتنفيذ هذه الرغبة فشيّد كل منهم مدينة بالجهة التي تولى الحكم فيها وسمّاها باسمه ، وكانت هذه المدن الأربعة هي : قرطبة ، إشبيلية ، ماردة ، سرقسطة ، وظلّت شبه الجزيرة خاضعة لحكم قياصرة الرّومان حتّى أغار عليها قبائل الوندال في القرن الخامس الميلادي ومن ثمّ أطلق عليها فاندالوسيا أي بلاد الوندال ، يقول المقري :« لم تشأ القبائل القوطية أن تترك الوندال ينعمون بهذه الأرض الطيّبة حتّى أغاروا عليها وطردوا الوندال إلى إفريقيا ، وكوّنوا لهم دولة قويّة في إسبانيا عمّرت نحو من أربعمائة سنة حتّى جاء الإسلام ، وكان آخر ملوك القوطيين " غيطشة " وهلك عن أولاد ثلاثة صغار لم تؤهلهم سنّهم إذ ذاك لضبط الملك وتدبير شؤونه ، فانحرف قائد الخيل " رودريك " ويسمّيه العرب لذريق بمن تبعه من رجاله ، وجلس على العرش يؤيّده بناء القوط ورجال الكهنوت ، وسار إلى قرطبة، بعد أن كان ملوك القوط الأصليّون يتزلون بطليطلة. وهناك على الساحل الإفريقي تقع مدينة سبته وكانت هذه المدينة من النّاحية السيّاسية تخضع للحكم القوطي ، ويدين حاكمها " يوليان " له بالطاعة والولاء وكان فضل الله عظيما إذ حدثت المعجزة فإنّه كان على إسبانيا رجل اغتصب الملك من أهله الشرعيين. ينهض البطريق "يوليان " إلى الأمير " طارق بن زياد " ، ويتفق معه على غزو إسبانيا ، ويكشف له عن عورة عدوّه ، ويدلّه على مكان الضعف فيه. ويتأهب" طارق " للغزو بجيشه ويساعده " يوليان بمراكبه وأدلّائه ، ثمّ يترل بجيش فوق صخرة تسمّت باسمه " جبل طارق " ، وينتهي الأمر الجلل إلى لذريق الذي كان وقتها مشغولا بإخضاع ثورة قامت ضدّه في الشمال ، فيقفل مسرعا ، حيث تلقّاه جيوش المسلمين عند وادي نهر لكه فيهزم هزيمة ساحقة منكرة ويختفي لذريق إلى الأبد ، ولم يقف له أحد على أثر من بعد ، وينتهي الأمر إلى موسى بن نصير الوالي على إفريقيا ويأمر " طارق " بالتوقف ، ريثما يلحق به ، ولكن طارق يخشى مغبّة هذا التوقف، فيعقد في الحال مجلسا عسكريا استشاريا يضمّ أركان حربه ، ويشير عليه المجلس بأنّ عملية التوقف ربّما تعطي العدوّ فرصة التّجمع والتكّتل فينهض " طارق " ويقّسم جيشه إلى فرق ، ويبثّها في شبه الجزيرة . ويلحق موسى بجيوش المسلمين ويسلك طريقا آخر غير الذي سلكه " طارق " ، ويذهب الجميع في توطئة أكتاف شبه

الجزيرة وضمّها إلى خطيرة الإسلام...»[1]، تحدّث المقري في هذا الجزء من المقولة عن القبائل القوطية وكيف كانت حالتها حيث قال أنّ آخر ملوك القوطيين " غيطشة " أنّه هلك عن أولاد ثلاثة صغار كانت سنّهم لم تؤهلهم لتدبير الشؤون. وأضاف إلى ذلك : « ومنذ ذلك اليوم ارتبطت الأندلس الإسلامية بالمغرب الإسلامي ، في المدّة التي تلت الفتح ، وكان واليها يولّى من قبل أمير إفريقية وكان أوّل وال تولّى السلطة فيها بعد الفتح عبد العزيز بن موسى بن نصير عيّنه أبوه أميرا عليها بعد أن رحل إلى الشرق ، بناء على طلب الخليفة بدمشق ، وتزوج من مسيحية فثار عليه شعبه وقتلوه ، وأمّروا عليهم أيّوب بن حبيب واليا على الأندلس ، وحينما سقطت دولة بني أمية في الشرق على أيدي أبناء عمومتهم العبّاسيين تناولوهم بالتقتيل وكأنّها حرب إبادة فشاء الحظ أن تكتب النّجاة لشخص من بني مروان يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي لقّب بصقر قريش . ولقد حاول الخليفة العبّاسي أن يقضي عليه ، ولكنّه كان من الدّهاء والحيطة ، بحيث قضى على أعدائه وبعث برؤوسهم إلى الخليفة العبّاسي في موسم الحجّ ممّا جعله يقول قولته الشهيرة: «الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه بحرا »[2] ومن هذا التاريخ الذي تولّى فيه عبد الرّحمن أمر الأندلس ، بدأ دور قرطبة في توجيه دفّة الأمور وبرزت إلى قمّة الوجود ، التشارك في عواصم العالم المتحضر إذ ذاك في السياسة والثقافة والعمارة وجميع مظاهر الحياة الحضارية وسارت قرطبة مستقرّ الخلافة وموطن الوزارة وكعبة الشعراء والأدباء وموئل أهل العلم ومقصد الطلّاب ومورد الثقافة. ولقد لقّب عبد الرحمن نفسه ، بالنّاصر وترجع قصة حياته إلى أنّه خرج وهو فتى طريدا وشريدا يلتمس النّجاة من يد أعدائه وزوّدته أخته ببعض النّقود ، يستعين بها في تدبير شؤونه ، ثمّ بعثت في أثره بخادم يدعى بدرا ، لعب في حياته دورا هامّا وظلّا ينتقلان حتّى وصلا الأندلس حيث كان لبني أمية حزب قوي ، ولهم فيها عدد كبير من الموالي والأنصار ، ومعضمهم ممّن اشترك في الفتح من أهل الشام ونافست قرطبة في عظمتها القيروان وبغداد والقاهرة وبخارى ودمشق وأصبحت قبلة الشعراء والكتّاب والفنّانين والعلماء وكانت قرطبة أشبه ما تكون

[1] _ أثر العلماء المسلمين في الخضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص 127.
[2] _ المرجع السابق ص 128.

بالعاصمة الكبرى لإسبانيا ، يفد إليها الملوك والسفراء ، ويقدّمون إلى صاحبها فروض الطاعة والولاء ويستجيرون به ويستظلّون بسلطانه.»[1]

« وممّا دعا العرب الأوروبيين أن يولّوا وجوههم شطر الحضارة الإسلامية التي طبّقت الآفاق ووجدت لها منارات مضيئة في دمشق وبغداد والقيروان والقاهرة وقرطبة وانصرفوا إلى دراسة علومهم في شراهة بالغة وحماسة كبيرة. ممّا ترك أثرا واضحا في الفكر الأوروبي من إلقاء نظرة سريعة على أهمّ مظاهر هذه الحضارة في النّواحي الفكرية والأدبية والفنّية ومدى تأثرها بحضارة الإسلام»[2]

بعد أن استعرضنا المعابر الثلاثة التي عبرت عليها الحضارة العربية الإسلامية في طريقها إلى أوروبا وهي سوريا ، صقلية وإسبانيا وقبل أن نستهل العرض الوصفي لمختلف الآثار الحضارية في العلوم جدير بنا أن نقف قليلا لنستمع إلى كلمة طيّبة لعالم غربي منصف هو البروفسور " ادوار بروي" أستاذ تاريخ الحضارات في جامعة السوربون في باريس حيث قال :« ظهر الإسلام كالشهاب الساطع فحيّر العقول بفتوحاته السريعة ، وباتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التي أنشأها ، نحن أمام شعب ، كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فإذا هو يتحد في بوتقة الإسلام (الدّين الجديد) الذي انطلق من الجزيرة العربية ، فاكتسحت جيوشه في بضع سنوات ، الدولة الساسانية الفرس وهدّت منها الأركان ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وإفريقيا ، ولم تلبث جيوشه بعد قليل أن استولت على معظم إسبانيا وصقلية ، أن تقتطع لأمد من الزمن يقصر أو يطول بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وفي جنوبها ، ودقّت جيوشه أبواب الصين والحبشة والسودان الغربي. وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها التنظيم ، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال. ذابت كما يذوب الشمع أمام النّار بعد أن أطلّ على الدنيا دين جديد له من الأتباع والمريدين اليوم ما يزيد على ثلاثمائة مليون إنسان ، وانجلى غبار الفتح عن إمبراطورية جديدة ، ولا أوسع ، وعن حضارة

---

[1] _ المرجع نفسه ص 126- 127- 128 – 129.

[2] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 58.

ولا أسطع ، وعن مدينة ولا أروع ، عوّل عليه الغرب في تطوره الصاعد ورقيّه البنّاء ، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات (من التراث الإنساني القديم) روحا جديدة عادت معه إلى الحياة ، قبض (أي التراث الإنساني) وأشعّ وأسرى...»[1] من خلال هذا التعريف يتجلّى لي أنّ ادوار بروي صرّح وأكّد بأنّ العرب هم الذين أثّروا في الدول الأوروبية ممّا أدّى إلى تأثر هذه الدول بالحضارة العربية الإسلامية.ونضيف إلى مقولته مايلي:«... ولهذه الأسباب المجتمعة كان لابدّ وأن يحتل تاريخ العالم الإسلامي محلّا مرموقا في ثقافة رجل العصر ، كما كان لابدّ لهذا الأخير من أن يفهم جيّدا ، أنّ المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيّز في الزمان (فالتراث الحضاري الإنساني ملك للجميع) وعلى رجل العصر أن يعرف جيّدا ، أنّه قبل " توما الأكويني " الذي رأى النّور في إيطاليا ، طلع " ابن سينا " في إحدى مقاطعات التركستان وأنّ مسجد دمشق وبغداد وقرطبة ، ارتفعت قبابها ، قبل كاتدرائية نوتردام في باريس ، بزمان، وإلّا ينتقص من شأن العالم العربي الإسلامي (من خلال واقعه الرّاهن) بل علينا إعتبار هذا التاريخ للحضارة الإسلامية من صميم التاريخ الإنساني المتنّوع في الأزمنة والأمكنة ، والذي لا يزال على الرغم من جزئياته وخصائصه ، تاريخ هذه البشرية الجامعة الجمعاء.»[2]

جميل بالإنسان أن يرتفع إلى مستوى الأنصاف، والوعي الإنسيابي فيدرك أنّ التراث الحضاري الإنساني ملك للجميع ، وأنّ الإعتراف بالفضل لأهله ، شيمة الإنسان الواعي المنصف. ويقول في ذلك جب :« إنّ خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنّها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها »[3]

يتجلى لنا من هذا التعريف أنّ الأدب الغربي تأثر في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث تأثرا واضحا بأسلوب الأدب العربي المعروف بالخصوبة الإبداع إلّا أنّ الأندلس امتازت بنوع خاص من الشعر الرقيق والذي بدأ في صورة الموشحات ومن أشهرها « عبادة القزاز وابن عبد ربه ولسان الدّين ابن الخطيب.»[4] قد أكّد جورج يعقوب أنّ هذا الفنّ أينع وكثر في الأندلس

1_ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، أحمد علي الملا ، ص 130.
2_ المرجع نفسه ص 131.
3_ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 61.
4_ المرجع السابق ص 61 – 62.

دون سائر الأقطار العربية وظهر في شمال إسبانيا لون مشابه للشعر الأندلسي الخفيف وثمّة زاهرة جديرة بالملاحظة في الشعر العاطفي الأوروبي الذي ظهر خلال الشطر الأخير من العصور الوسطى هي العناية بالقافية والمعروف أنّ الشعر الأوروبي الكلاسيكي لم يهتمّ بالقافية وهذه الظاهرة جعلت كثيرا من الباحثين والمستشرقين يعتقدون أنّ القافية جاءت أوروبا عن طريق الشعر العربي ، وهذا المستشرق " جورج يعقوب "يقول : « إنّ القافية هي التي خلّفت ذلك النّثر القويّ في شعر جوتة الوجداني وإليها يرجع الفضل في هذه الموسيقى الجميلة التّي يحسّها القارئ لشعر بلاتن ونثر ستفن جورج وغيرهما من أعلام الأدب في أوروبا.»[1] وكان الأدب الإسباني هو أوّل ما تأثر بالأدب العربي فنقل "بطرس ألفونس" اليهودي من العربية إلى الإسبانية مجموعة قصص هندية هي التي عرفت باسم التعاليم الكنيسة ، وفي سنة 1251م ترجمت أيضا مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم كليلة ودمنة وترجمة قصص الحكماء السبعة أو السندباد سنة 1253م. وقد استمرّت روح الأدب العربي في الأندلس بعد جلاء العرب عنها يقول جب :« إنّه قلّ من يستطيع أن ينكر أنّ ما تمتاز به آداب الجنوب الأوروبي من انبساط وخيال خصب يرجع إلى تأثير تلك الآداب بالمؤثرات العربية كما يرجع إلى ما خلّفته الثقافة العربية من آثار في أهل الأندلس.»[2]

وقد لاحظ الباحثون أوجه شبه واضحة بين القصص العربي الخيالي وبين بعض القصص التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى مثل قصة إيزولد ذات اليد البيضاء ، وهكذا استطاع الأدب العربي أن يؤثر تأثيرا واضحا في القصص الأوروبي ليس فقط في العصور الوسطى بل الحديثة ، فالرّوح الأندلسية تبدو واضحة في قصة " أمادس دي جولا " التي كتبها عدة قصّاص في القرن الخامس عشر الميلادي والمهمّ في أمر هذه القصص أنّها تعبّر في مجموعها عن صدى الثقافة العربية في الفكر الأوروبي. ولقد أقبل الجمهور الأوروبي إقبالا شديدا على قصص ألف ليلة وليلة وإلى هذه القصص يرجع الفضل في إثارة روح المغامرة عند الأوروبيين تلك الرّوح التي لابدّ منها لكلّ أدب شعبي ، حتّى اعترف الأستاذ " جب " بأنّه لولا قصص ألف ليلة وليلة لما عرف الأوروبيّون قصة " روبنسون كروزو" أو قصة رحلات جلفر ، ويضيف جورج يعقوب قائلا :« إنّ قصة روبنسون كروزو مأخوذة عن قصة حيّ بن يقضان التي كتبها فيلسوف الأندلس ابن طفيل والتي

[1] _ المرجع السابق ص 63.
[2] _ المرجع نفسه ص 64.

ترجمت إلى اللاتينية سنة 1671م وإلى الإنجليزية سنة 1708م.»[1] ويرجع البعض أنّ المقامات العربية أثّرت هي الأخرى في الأدب الأوروبي في العصور الوسطى والحديثة. والمعروف أنّ هذه « المقامات تتألّف من قصص متفرقة بطلها شخص يستغل خفّة روحه وسعة حيله في كسب قوته وأشهر هذه المقامات : مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان الهمذاني.»[2] ولم يقتصر تأثر الأدب الأوروبي بالأدب الإسلامي بالشعر والنّثر والقصة فقد كانت اللّغة العربية نفسها أثر عميق في اللّغات الأوروبية وكذلك تركت أثرا واضحا في فرنسا. كما أحسّت الجامعات الأوروبية بأهميتها كلغة للعلم والمعرفة. يقول الدكتور ألحجي : « الدنيا في الفلسفة أسماء لامعة وإنتاج غزير مثال الفيلسوف محمد باجة المتوفي سنة 533ه ، الفيلسوف ابن رشد المتوفي سنة 595ه وهو أعزم فيلسوف أندلسي ترك أثرا واضحا في الغرب. والفيلسوف ابن الطفيل صاحب قصة " يحي بن يقضان " التي ترجمت إلى اللاتينية سنة 1671م وإلى الهولندية سنة 1972م ونقلت إلى أكثر اللّغات الأوروبية ولقد ترجمت كتب ابن رشد إلى اللاتينية وبقيت فلسفته مسيطرة على الفكر الفلسفي الأوروبي من أواخر القرن الثاني عشر الميلادي والفيلسوف " ابن سينا " الذي ذاع صيته في العصور الوسطى في الشرق والغرب في الفلسفة والطب (.....) ومن أشهر كتبه كتاب الشفاء ويعتبر موسوعة فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات وإلهيات وقد ترجم إلى اللاتينية ومنها إلى بعض اللّغات الأوروبية.»[3]

لقد كان التأثير الفلسفي على أوروبا عظيما حتّى أنّ ترند قال : « إنّ أعظم ما خلّفه المسلمون للفكر الأوروبي هو أعمال فلسفتهم.»[4] إلّا أنّ المشرق الإسلامي شهد نشاطا كبيرا لبعض الفلاسفة أمثال «الفرابي والكندي وابن سينا.»[5] ولكن تأثير الفلسفة الإسلامية على الفكر الأوروبي كان مركزه الأندلس لأنّ أوروبا لم تعرف فلاسفة المشرق إلّا عن طريق الأندلس حيث أشرف ريموند رئيس أساقفة طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي والعديد من

---

[1] _ المرجع السابق ص 66_ 67.
[2] _ المرجع نفسه ص 67.
[3] _ الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية ، د. موسى عبد اللاوي ، دار العلوم للنشر والتوزيع عنابة ، ص 159.
[4] _ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ص 69.
[5] _ المرجع نفسه ص 69.

الكتب العلمية العربية. كانت اللّغة العربية والدّين الإسلامي الحنيف رابطا قويّا بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها والذي كان من خلاله يتنقل النشاط الفكري والعلمي.

«ولقد لخص الأستاذ أحمد أمين العوامل التي أعانت أهل الأندلس على التفلسف في انتقال بعض الفلاسفة العلماء من بغداد إلى الأندلس. وهكذا لم ينفرد المشرق وحده بالعناية بعلوم اليونان وإنّما شاركه في ذلك المغرب أيضا ، هذا في الوقت التي انقطعت الصلة بين الغرب اللاتيني وعلوم اليونان ، ممّا جعل العرب أصحاب فضل عظيم في المحافظة على كتب أرسطو بل تعريف الأوروبيين لبعض هذه الكتب.»[1] وكان لاتصال العقلية الأوروبية الغربية بالفكر الإسلامي دور في إثارة حماسة الأوروبيين لدراسة الفلسفة اليونانية. وهنا يتسائل الأستاذ جيوم قائلا : « إذا لم يكن التأثير الأوّل الفعّال عربيا فكيف نفسر إختلاط اسم أرسطو بالتعاليم المنسوبة إلى ابن رشد أجيالا طويلة؟»[2] وتأتي شهادة الفيلسوف الإنجليزي روجر بيكون الذي قال : « والواقع هو أنّ معظم فلسفة أرسطو ظلّت عديمة الأثر في الغرب لضياع المخطوطات التي حوت هذه الفلسفة ، أو ندرتها وصعوبة تذوقها حتّى ظهر فلاسفة المسلمين فقاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على النّاس عرضا شاملا.»[3] وتأتي هذه الشهادة مؤيدة لما قاله جيوم ، وإذا كان كما قلنا المشرق الإسلامي قد نبغ فيه فلاسفة عظماء ، فإنّ الأندلس كان له أيضا فلاسفته الذين ضربوا الرقم القياسي في حرية التفكير وتركوا أبعد الأثر في الفكر الأوروبي. وأهم فلاسفة الأندلس « ابن باجة وابن طفيل وابن رشد »[4]، وهؤلاء كان تأثيرهم في أوروبا أكثر منه في العالم الإسلامي.

لقد اهتمّ الغرب اهتماما كبيرا بالفيلسوف ابن رشد أكثر من غيره بوصفه أكبر شارح لفلسفة أرسطو ذلك لأنّه كان شديد الإعجاب به وفي ذلك يقول رينان :« ألقى أرسطو على باب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ثمّ جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة ففسرها وشرح غامضها.»[5]

---

[1] _ المرجع السابق ص 70.
[2] _ المرجع نفسه ص 72.
[3] _ المرجع نفسه ص 72.
[4] _ المرجع نفسه ص73.
[5] _ المرجع نفسه ص 73.

يتجلّى لي من هذا القول أنّ ابن رشد كان ينظر إلى نظرة أرسطو نظرة خارقة فكان يفسرها ويشرح غامضها. بالإضافة إلى ديورانت الذي يقول: « واعتزم ابن رشد أن يعد لكلّ كتاب من كتب أرسطو الكبرى خلاصة موجزة في أوّل الأمر ثمّ شرح لها موجزا أيضا ثمّ شرحا مطوّلا للطلبة المتقدمين في الدرس ، وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة في الصعوبة مألوفة في الجامعات الإسلامية . وكان صبره وصفاء ذهنه ، وقدرته على التحليل الدقيق العميق ، أذاعت شهرته في أوروبا كلّها وأكسبته اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلو عليه في المترلة إلّا ابن سينا العظيم»[1] حتّى قال الغرب عن ابن رشد :« إذا اعتبر أرسطو الفيلسوف الأكبر فإنّ ابن رشد هو الشارح الأعظم.»[2] أمّا جيوم فقال عن ابن رشد :«إنّه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر الإسلامي.»[3] كل هذه التعريفات تتمحور نحو خلاصة واحدة وهي أن ابن رشد أعطوه اسم الشارح الأعظم.

كما عرف العرب العلم الرياضي بأنّه علم غرضه إدراك المقادير وأطلقوه على الحساب والجبر والمقابلة والمثلثات والهندسة والفلك حيث عرّفه الشيخ بدر الدين المارديني : « علم بأصول يتعرف فيها على مقادير مجهولة مسمّاة بأسماء خاصّة ويتوصل به إلى استخراج كمّية المطلوب من معلوم مفروض بينهما صلة.»[4] وعرّفوه أيضا على أنّه « علم من العلوم الرياضية تستخرج به المجهولات باستخدام حروف وأرقام وعلامات.»[5] وفي هذا المجال يقول المستشرق سيديو: «...والعرب حين زاولوا علم الهيأة عنوا عناية خاصّة بالعلوم الرياضية كلّها ، فكان لهم فيها القدم، فكانوا أساتذة لنا في هذا العصر بالحقيقة!»[6]

يتبيّن لنا من هذه التعاريف أنّه الكثير من أمم العالم المعاصر تدين للعرب الذين سهّلوا على العالم عمليات الحساب التي كانت معقّدة حيث قيل : « فكلّ الأمم المتحضرة تستخدم اليوم الأرقام كل التي تعلّمها الجميع عن العرب ، ولولا تلك الأرقام لما وجد اليوم هذا الصرح الشامخ

1_ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ص 73.
2_ المرجع نفسه ص 74.
3_ المرجع نفسه ص 74.
4_ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، د. أحمد علي الملا ، ص 153.
5_ المرجع نفسه ص 153.
6_ الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية، د. موسى عبد اللاوي ، ص 163.

من علوم الرياضة والطبيعة والفلك ، بل لمّا وجدت الطائرات التي تسيق الصوت أو صواريخ الفضاء ، لقد كرّمنا هذا الشعب الذي منّ علينا بذلك الفضل الذي لا يقدر حين أطلقنا على أرقام الأعداد عندنا اسم الأرقام العربية.»[1]« ولكن العرب أنفسهم يؤكدون أنّهم قد أخذوا أرقامهم عن الهنود وهم يسمّونها بالأرقام الهندية حيث يتضح هذا الفضل إذا عرفنا أنّ أوروبا قبل أن تصلها الأرقام العربية كانت تكتب حساباتها بالأرقام الرّومانية التي كانت تقوم على الخطوط والحروف الأبجدية اللّاتينية. وفي هذا ما فيه من التعب.»[2]« فالأرقام الرّومانية في آخر صور تطورها أصبحت تكتب على الشكل التالي : واحد I ، اثنان II، ثلاثة III ، أربعة IV ، خمسة V ، ستة VI ، سبعة VII، ثمانية VIII، تسعة IX ، عشرة X ، خمسون I ، مائة C ، خمسمائة D ، ألف M. ولم تكن الأرقام الرومانية المكتوبة بالحروف الأبجدية لتقدر على مسايرة التطور الحديث للعمليات الحسابية التي تحتاج إلى الدّقة والسرعة معا لأن الفرق فيها كبير بين كتابة الأرقام ونطقها فكلّ عدد حتّى الأعداد الصغيرة يتكون من أرقام عديدة ذات قيم مختلفة تشبه في قيمتها واختلافها قطع النقود فبينما الرّومان يقولون «quadringentioctogintisepten» أي « أربع مائة وثمانون وسبعة » فإنّهم يكتبون هذا العدد : مائة _ مائة_ مائة _ مائة _ خمسون _ عشرة _عشرة _عشرة _ خمسة _ واحد _ واحد»: (CCCCLXXXVII) وعلى الرغم من وضوح تلك الأعداد وسلاستها عند التحدث بها فقد كانت كتابتها صعبة غير مرتبة وتقود إلى الخطأ كما كانت العمليات الحسابية باستخدام هذه الأرقام شبه مستحيلة.»[3]

لقد كان للعرب أثر واضح على أوروبا في الرياضيات سواء في الحساب أو الهندسة أو الجبر أو حساب المثلثات أو الميكانيكا. فقد بنى المسلمون معارفهم في الرياضيات على أساس من علوم اليونان والهند ثمّ تقدّموا بهذه العلوم وخطوا بها خطوات واسعة نحو الأمام فظهر منهم في المشرق علماء أفذاذ في العلوم الرياضية أمثال « الخوارزمي وثابت بن قرّة والبتاني والخازن البصري وعمر الخيام»[4] وغيرهم كذلك ظهر في المغرب الإسلامي « مسلمة المجريطي وابن السمح وابن الصفار

---

[1]_ الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر ، د. الربعي بن سلامة، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص 207.
[2]_ شمس العرب تسطع على الغرب " أثر الحضارة العربية في أوروبة " ، د. زيغريدهونكة ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، ط 6: 1401ه/ 1981م ، ص 68.
[3]_ الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر ، د. الربعي بن سلامة ، ص 208.
[4]_ معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، د. محمد فاروق أحمد الإمام ، ص 79.

والكرماني وأمية بن أبي السلط »[1] وغيرهم.« وإذا كان الهنود هم الشعب الوحيد الذي استطاع التخلص من هذا النظام العقيم المعتمد على الحروف والرموز المتسلسلة وأوجدوا لكلّ رقم شكلا واحد يدلّ عليه ويكتب به وهو يكتسب قيمته تبعا لموضعه في خانة الآحاد أو العشرات أو المئات أو الآلاف ممّا مكنهم من كتابة أي عدد مهما بلغت قيمته دون قيود أو حدود فإن طريقتهم لم تكن كاملة[2]».« وإذا كان عبد الملك بن مروان قد عرب الدواوين كما هو معروف فإنه لم يستطع الإستغناء عن الأرقام اليونانية واضطر للإبقاء عليها وظل العمل ساريا بها إلى أن انتشر كتاب السند هند وتعرف العرب على أرقامه ونظام العمل بها فأخذوا يستغنون عن الأرقام اليونانية ويستعيضون عنها بالأرقام الهندية شيئا فشيئا إلى أن ساد النظام الجديد وقد ألّف الخوارزمي كتابا بيّن فيه ذلك النّظام الهندي وطريقة استخدامه عمليا وضرب من الأمثلة على ذلك ليسهل على رجال المال والتجار و الموظفين عملهم كما قدم العديد من الأمثلة على لتقسيم الميراث بين مستحقيه، كما نص على ذلك القرآن بطريقة مبسطة بدلا من تلك العمليات الحسابية المعقدة التي كانت شائعة. و كتب الخوازمي كتابين هامين في الرياضيات حمل الأول منها حساب الجبر و المقابلة يضم مجموعة ممتعة من المشاكل الرياضية التي يعنينا أمرها في الحياة العملية وحينما ترجم الكتاب إلى اللاتنية في العصور الوسطى حمل معه اسم العربي ليصبح كلمة الجبر « Algebra »كلمة عالمية تخلد اسم صاحبها.

وكان كتابه الثاني كتابا تعليميا صغير الحجم، في علم الحساب شرح فيه استخدام نظام الأعداد والأرقام، كما شرح طرق الجمع والطرح و القسمة والضرب وحساب الكسور، ونقل هذا الكتاب إلى إسبانيا وترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر وقد حمل الكتاب المترجم إلى الأراضي الألمانية وترجع أول نسخة منه إلى عام 1143م وهي مكتوبة بخط اليد وموجودة في مكتبة البلاط في فيينا ووجدة النسخة الثانية منه في دير سالم ولم يلبث الألمان أن جعلوا من الخوارزمي شيئا يسهل عليهم نطقه فأسموه« Algorizmus »ونظموا الأشعار باللاتينية تعليقا على نظرياته، وعندما نقل الغرب عن العرب أرقامهم نقلوا معها طريقتهم في قراءة الأرقام من اليمين إلى اليسار

---

[1] _ المرجع السابق ص 80.

[2] - الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر، د. الربعي بن سلامة، ص 209.

الآحاد ثم العشرات والخوارزمي حيث تناول في كتابه موقع الصفر في عمليات الجمع والطرح مثل:

48- 28 = 20[1] قال:" في عمليات الطرح إذا لم يكن هناك باق تضع صفرا ولا تترك المكان خاليا حتى لا يحدث لبس بين خانة الأحاد وخانة العشرات"[2] ويضيفه: "إنّ الصفر يجب أن يكون عن يمين الرقم لأنّ الصفر عن يسار الاثنين مثلا [02] لا يغير من قيمتها ولا يجعل منها عشرين"[3] أما عن الكيفية التي انتقلت بها الأرقام العربية إلى أوروبا "ألف ليوناردو وهو في الثالثة والثلاثين من عمره كتابه الشهير « Liber Abaci » باللّغة اللاتينية ويقول "موريد وكانتور" « Morittz Contor » عن هذا الكتاب "يا له من كتاب قيّم إنّنا نعرف عددا كبيرا من الكتب المعاصرة المتعلقة بهذا النّوع من العلوم ولكن ليس فيها كتاب واحد يضارع هذا الكتاب".[4] وكتب ليوناردو الفصل الأول عن كتابه « Liber Abaci » عن الأرقام العربية، فقال: "إنّ الأرقام الهندية التسعة هي، 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9 وبواسطتها جميعا علاوة على تلك العلامة "0" التي تسمّى الصفر العربي فإنّه يمكن كتابة أي عدد مهما كان"[5] فالصفر عند الغربيين يبدأ من اليسار إلى اليمين ولكن ليوناردو كان يقرأ كالعرب من اليمين إلى اليسار، فقد كان يعلم الغربيين تلك الأرقام لما فيها تلك العلامة "0" التي يسمّيها العرب صفرا "فالرقم DCCCCXXXXVIII أصبح يكتب بثلاثة أرقام بسيطة هكذا 998"[6]. وكان من الصعب على النّاس أن يتعلموا كتابة الأرقام العربية وأشكال أخرى مألوفة لهم حتّى يسهل حفظها وكتابتها فتقول الأرجوزة تخليط من الكلمات اللاتينية والألمانية: "الواحد كلسان الميزان، والاثنان تشبه العكاز والثلاثة كذيل الخنزير والأربعة تشبه السحق أما الخمسة فتشبه الموج والستة كالنفير، والسبعة تشبه الحربة، والثمانية كالسلسلة والتسعة كالصولجان

[1] الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر، د. الربعي بن سلامة، ص: 210- 211.
[2] المرجع نفسه، ص:211.
[3] - المرجع نفسه، ص 211.
[4] - المرجع نفسه، ص 213.
[5] - المرجع نفسه، ص 213.
[6] - المرجع نفسه، ص 214.

والصفر يشبه الخاتم والخاتم إلى جوار لسان الميزان يكون العشرة والخاتم بمفرده لا قيمة له"[1]. والخلاصة التي يمكن الخروج بها من رحلة الأرقام العربية إلى أوروبا أنها كانت أرقام خير وتقدم.

يقول ديورانت: "... وحافظ المسلمون في العصر الذي يتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع في العلوم وكان أعظم ما بلغوه من التقدم في علم الرياضة في مراكش وأذربيجان ففيهما تشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقيّ عظيم ففي مدينة مراكش نشر حسن المراكشي في عام 1229م جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات وجداول بجيوب التمام وجيوب الأقواس، وممارسات الأقواس المتماسة، وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر نصر الدين الطوسي أقل رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علما مستقلا بذاته لا بوصفه فرعا من فروع الهيئة: وقد بقي كتابه المسمّى شكل القطاع لا ينافسه منافس في هذا الميدان حتى نشر جيوب منتاس كتابه المثلثات بعد مائتي عام من ذلك الوقت، وربّما كان حساب المثلثات الذي ظهر عند الصينيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي عربي النشأة".[2]

ولم يكن الغرب يعرفون أنّ رقم (واحد) تتغير قيمته حسب وضعه في خانة الآحاد أو العشرات أو الألوف أو الملايين في حين أنّ قيمة الرقم لا تتغير في النّظام الروماني بتخيير خانته فرقم (0) مثلا لا يمكن أن يعني خمسين أو خمسمائة أو خمسة آلاف. وهكذا إذا أردنا أن نكتب عددا مثلا: (٣٨٣) بالأرقام اللاتينية أي التي لم تعرف أوروبا غيرها في العصور الوسطى فإنه يكتب على هذا الوضع (GGGLXXXILI) صحيح أن الأعداد هذه المستخدمة حاليا في الغرب ليست من اختراع العرب إذ من المرجح أنّها هندية الأصل. كما أشار العرب أنفسهم وكما يتضح من طريقة كتابتها من اليسار إلى اليمين ولكن يكفي العرب فضلا أنّهم وصلوا هذه الطريقة الجديدة إلى أوروبا ورحموا الأوروبيين من تعقيد النّظام العددي الروماني العقيم وبذلك سهّلوا العمليات الحسابية وساعدوا على تقدم الرياضيات. ولم يعرف الغرب استعمال الصفر إلا عن طريق المسلمين في القرن الثاني عشر الميلادي"[3] حتى قال جورج بيدل إيري: "إنّ فكرة الصفر

[1]- شمس العرب تسطع على الغرب، د. زيغريد هونكة، ص 96.
[2]- معابر: الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، د. محمد فاروق أحمد الإمام، ص 81.
[3]- المرجع نفسه، ص 82-83.

تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التّي قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا"[1] وكان العرب قد استخدموا لفظ "صفر" للدلالة على "لا شيء" منذ العصر الجاهلي.

كما يبدو في البيت الثاني الذي جاء في قصيدة الحاتم الطائي:

"ترى إن ما أهلكت لم يك ضرني وإن يدي مما نجلت به صفر"[2]

"ولكن انتبه أيضا لي، أنا الصفر لا ينطق بـــي

دائرة مستديرة متكاملة، لي قيمتي في المعاملة

بي تستطيع الترقيم، فتنفتح الأعداد وتستقيـــم

ترجمة للأبيات عن اللاتينية من أشعار القرون الوسطى"[3]

وفي القرن الثامن الميلادي استخدم المسلمون الصفر في الحساب فرسموه على هيئة حلقة، ما ذكر ابن رشد في مفاتيح العلوم أنّه إذا لم يظهر في العمليات الحسابية رقم مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف. وبقي الصفر مع ذلك يمثّل دوره الخطير في تكوين الأعداد دون أن تكون له في ذاته أيّة قيمة ودون أن ينطق به عند التكلم كبقية الأرقام حيث تقول قصيدة ألمانية من شعر العصور الوسطى:

"الأرقام تسعة فاحتـــــــرس

تنطق كلها دون لبـــــــس

ولكن انتبه أيضا لـــــــــي

أنا الصفر لا ينطق بـــــــي

---

[1]- المرجع السابق، ص 83.
[2]- المرجع نفسه، ص 83.
[3]- شمس العرب تسطع على الغرب، د. زيغريد هوتكة، ص 65.

دائرة مستديرة متكاملـــــــــة

لي قيمة في المعاملـــــــــــة

إن أضفتني إلى يمين عـــــــدد

أصبح عشرة أمثـــــــــاله

وبي تستطيع الترقـــــــــيم

فتتضح الأعداد وتستقيـــــــم"[1]

"لم يكن الخوارزمي أوّل من قدم الأرقام العربية للغرب، ففي نهاية القرن العاشر قام عالم غربي لكتابتها وتعليمها لتلاميذه ولكنّه لم يستطع أن ينشرها بين قومه لأسباب خارجة عن إرادته ولم يكن هذا العالم المعلم إلا رجلا متواضعا اسمه جربرت تطورت به الأحداث حتى صار علما في عصره حيث أنّ الغربيين لم يكونوا يعرفون قبل هذا الرّجل علم الرياضيات."[2]

"يعزى إلى المسلمين الفضل في اختراع علم الجبر الذي ارتبط باسم العالم الشهير الخوارزمي وبذلك يبطل الزعم بأنّ اليونانيين قد قدّموا تحليلا دقيقا لعلم الجبر استنادا إلى كتاب "صناعة الجبر" لذيوفنطس (ديافنتوس) الّذي يقول عنه القفطي: "اليوناني الإسكندراني فاضل كامل مشهور مذكور خرج إلى العربية وعليه عمل أهل هذه الصناعة. وإذا تبصره النّاظر رأى بحرافي هذا النوع"[3] "ويحتوي هذا الكتاب على ثلاث عشرة مقالة ولم يصل إلينا منه إلا المقالات الست الأولى وما جاء في هذه المقالات وما كتب لها من شروح وتعليقات فيما بعد لا يضع أمامنا بصورة كاملة مخططا كاملا لعلم الجبر ولكنّه على كل حال يقدم إلينا فكرة عن بعض المسائل الرياضية المتصلة بعلم الجبر والتي يرجع أن يكون الخوارزمي كذلك قد استفاد منها في وضع هذا العلم في صورته التي ظهر بها على يديه. ويعتبر الخوارزمي كذلك أوّل من طور في الحساب وجعل منه فنّا صالحا

---

[1]- المرجع السابق ، ص 97.

[2]- المرجع نفسه، ص 78.

[3]- نماذج لعلوم الحضارة الإسلامية وأثرها في الآخر، د. خالد حربي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2006، ص 23.

للاستعمال اليومي ومفيدا لبقية العلوم بعد أن وشح فيه ونظمه تنظيما دقيقا ويعدّ الخوارزمي بحق مثالا رائدا في الرياضيات وفي الجبر بصفته خاصة فهو أوّل من أطلق مصطلح الجبر الّذي أخذ عنه الأوروبيون الكلمة الإنجليزية Algebra ولقد ظلّ الخوارزمي موضع اهتمام الأوروبيين، بل واعتمدوا عليه في كثير من أبحاثهم ونظرياتهم بحيث يمكن القول بأنّ الخوارزمي وضع علم الجبر وعلم الحساب للنّاس أجمعين".[1] والواقع أنّ أعمال الخوارزمي الرياضية خاصّة كتاب الجبر والمقابلة كان لها شأن كبير ليس فقط على مستوى تاريخ العلم العربي بل وعلى مستوى تاريخ العلم العالمي فلقد كان هذا الكتاب بمثابة الينبوع الّذي استقى منه علماء أوروبا يذكر كر يستوفر في كتابه "التقليد الإسلامي" أنّ الخوارزمي الذي عمل في بيت الحكمة في بغداد كتب كتابا مهما ومؤثرا في علم الجبر وأنه هو الذي أطلق على الزاوية مصطلح "الحبيب" الذي ترجم اللاتينية بالمصلح "Simus"[2]، من هنا يتضح أنّ أعمال الخوارزمي في علم الرياضيات كان لها صدى في الماضي والحاضر لأنّها أحد المصادر الرئيسية التي انتقل خلالها الجبر والأعداد العربية إلى أوروبا. فعلم الجبر من أعظم ما اخترعه العقل البشري من علوم لما فيه من دقة وأحكام قياسية عامّة فالخوارزمي هو الذي وضع قواعده الأساسية وأصوله الابتدائية كما نعرفها اليوم.

وقد كان العرب بطبيعة حياتهم البدوية يراقبون السماء ويكثرون من التطلع إلى الكواكب والنّجوم كما جاء الليل وتألقت نجومه في سماء صحرائهم الصافية. وقد كان للنّجوم أهمية كبيرة في حياة البدو والرحل بها كانوا يتنبأون ببعض الظواهر الطبيعية كسقوط المطر وما ينتجه عنه من خير ولذلك عبد بعضهم النّجوم. فقد كان للمسلمين المراصد العلمية والفلكية في "طليطلة وقرطبة وبغداد ودمشق والقاهرة وسمرقند وفارس"[3]، حيث يقول بيكوردين: "نشأ توسع علم الفلك عند العرب من توسع الرياضيين منهم في الحساب، لأنّهم اخترعوا حساب المثلثات وحققوا طول محيط الأرض بما كان لهم من الأدوات وأخذوا ارتفاع القطب ودور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر وحقّقوا طول البحر المتوسط !"[4] وقال دابر: "وعرفت العرب حجم الأرض بقياس درجة سطحها، وعيّنوا الكسوف والخسوف، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة وقدروا طول

[1]- المرجع السابق، ص 24.
[2]- المرجع نفسه ،ص 42.
[3]- الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر، د. الربعي بن سلامة، ص 215.
[4]- الحضارة الإسلامية وآثارها على المدينة الغربية، د. موسى عبد اللاوي، ص 162.

السنة، وأدركوا الاعتدال ولاحظوا أمورا بعثت نورا باهرا على نظام العالم واختص علماء الفلك منهم باختراع الآلات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المتنوعة، وكانوا السباقين إلى استعمال الساعة الرقاصة كذلك"[1]، حيث لخصّوا فضل العرب على النهضة الأوروبية في العلوم الرياضية والفلكية فقيل: "ومع ذلك فإنّ النّور الذي سطع في سماء الغرب المظلمة آنذاك كان بلا ريب، حدثا عظيم الشأن قويا، فبواسطة العرب تعرفت أوروبا على أهم آثار القدامى..."[2].

"لقد تمكن العرب المسلمون بما أضافوه إلى جغرافية اليونان، وما اكتشفوه وطوروه، وبلغوا به درجة عالية من العلمية ومن تأثيرهم في شعوب العالم لاسيما أوروبا إذ اتصل الغرب بعلم الجغرافيا عن طريق الأندلس وصقلية، وحتّى عصر النهضة ظل الجغرافيون الأوروبيون يستفيدون من الجغرافيين العرب المسلمين كأدريسي وأبي الفداء. وقد استفاد كولمبس من إطلاعه على نظريات العرب في هذا العلم وكان أثر الإدريسي كبيرا فقد ظلت خارطة حوالي عام 1154م هي الأثر الوحيد الهام في الكارتوغرافيا الأوروبية قبل القرن 14م"[3]. ومن الجغرافيين ذوي الرحلات العالمية: "الرازي وأبو عبيد البكري والعذري والإدريسي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم، حيث أن الإدريسي هو الذي صنع كرة فضيّة ضخمة تمثل الكرة الأرضية وما تزال محفوظة في متاحف برلين حتى اليوم".[4]

كان الطب خلال القرون الوسطى في أوروبا متخلفا يعتمد على الشعوذة، والوسائل التقليدية، وظلّ الأطباء الأوروبيين يعتقدون في الكثير من الأمراض على أنّها أرواح شريرة حلت بذلك الشخص أو الجسم لارتكابه جرما أو خطيئة لذلك لعب المشعوذون محترفي الرقية دورا في هذا المجال، وساعدت على ذلك الكنيسة غير أنّ وجود العرب في الأندلس وصقلية، وانتقال بعض الأوروبيين للدراسة في الجامعات العربية الإسلامية بدأ الطب العربي المبني على التجربة والدراسة العلمية ينتقل إلى أوروبا وتداول الأطباء الأوروبيين دراسات ابن سينا والرازي وعلي بن العبّاس الّتي حلّت محل جالينوس حيث قال لدبون: "أنّ جامعة لوقان اتخذت من كتب الرازي، وابن سينا

---

[1]- المرجع السابق، ص 162.
[2]- الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر، د. الربعي بن سلامة، ص 221.
[3]- معالم الحضارة العربية الإسلامية: مدخل نظم – علوم زراعة وصناعة – اجتماعيات – عمارة وفنون تأثيرات، د. إسماعيل سامحي، ديوان المطبوعات الجامعية، 10-2007م، ص 386.
[4]- الحضارة الإسلامية وآثارها على المدينة الغربية، د. موسى عبد اللاوي، ص 162.

أساسا للدراسة، في القرن السابع عشر الميلادي، وأنّ أول المؤلفات اليونانية التي تنل فيها غير الخطوة إلا قليلا، وأنّها اقتصرت على بعض جوامع الكلم لبثراط وبعض الخلاصات لجالينوس"[1] وتقول زيغريد هونكة: "قبل 600 عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم لا تحتوي إلا على مؤلف واحد، وهذا المؤلف كان لعربي كبير هو الرازي، وقد اعترف الفرنسيون بقيمة هذا الكتر العظيم، وبفضل صاحبه عليهم، وعلى الطب إجمالا، فأقاموا له نصبا في باحة القاعة الكبرى في مدرسة الطب لديهم، وعلّقوا صور له وصورة عربي آخر في قاعة أخرى كبيرة تقع في سان جرمان، حتى إذا تجمع فيه اليوم طلاب الطب وقعت أبصارهم عليها، ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخه".[2]

ظلّ علم الكيمياء عند المسلمين مشوبا ببعض الأوهام والخرافات كالبحث عن أكسير الحياة الذي يشفي من جميع الأمراض، ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية رأس علماء الكيمياء العرب والمسلمين وكان أوّل من عمل فيها فقد اشتغل بالكيمياء والطب والنجوم فأتقنها وألّف فيها رسائل، وهو عند أهل هذه الصنعة من المتقدمين فيهم فهو يقول في الكيمياء:

"فدر الطلق ملح الأشق ..... وما يوجد في الطريق

وشيئا يشبه البرقـــــا ..... فدبره بلا حـــــرق

فإن أصيبت مولاكا ..... فقد سودت في الخلق"[3]

كما ظهر هذا التأثير متأخرا خلال القرن 13هـ/18م من ذلك تأثرا أحد العلماء الأوروبيون وهو "هنري كافندش (1730هـ-1810م) بعلم الكيمياء العربي ولاسيما بجابر بن حيان في كيفية تحويل المعادن حيث أصبحت خلال القرن 13هـ/18م الدليل والمصباح المنير للكيمياء بل درة العصر والكلمة الأخيرة".[4]

---

[1]- معالم الحضارة العربية الإسلامية، د. إسماعيل سامحي، ص 384.
[2]- المرجع نفسه، ص 384.
[3]- معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، د. محمد فاروق أحمد الإمام، ص 119.
[4]- معالم الحضارة العربية الإسلامية، د. إسماعيل سامحي، ص 385.

"ظهرت الصيدلة كمهنة منفصلة عن الطب الأول مرة في أواخر القرن الحادي عشر عندما أمر الإمبراطور فريدريك الثاني بألمانيا بعدم ممارسة الطب أو الصيدلة إلا بإذن خاص. وفتح فريديريك أبواب مملكته للعلماء العرب، ودعا الكثير منهم ومن غيرهم من علماء أوروبا والشرق لتدريس العلوم الطبية في كلية طب سالرنو وجامعة كابولي التي أنشأها. إلا أنّه ذكر في كتاب من الكتب التي كان على الصيادلة دراستها طريقة استعمال الأسفنجة للتخدير وهي مزيج من خلاصة الأفيون والبنج والبيروح، ونباتات أخرى ذات تأثير مخدر تجمع وتجفف في الشمس ثم تنفتح في ماء ساخن وعند الاستعمال تملأ الأسفنجة من السائل ويقطر المحلول في فتحتي أنف المريض"[1] ويعتبر هذا أوّل استعمال للتخدير في الجرحان والآلام المرضية، والعرب هم الذين وضعوا أسس صناعة الصيدلة فكانوا يجلبون العقاقير من الهند، ومن غيرها ثم راحوا يصنعون مختلف العقاقير ويعالجون المرضى ويدرسونها ويؤلّفون الكتب فيها، ولهم فضل كبير في فن الصيدلة ولعلهم أوّل من اعترف بالصيدلة كمهنة وعلم مستقل بذاته وعرفوا الصيدلة بأنّها: "العلم الباحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة في الشكل ومعرفة من بتها صينية أو هندية، أو فارسية أو مصرية ومعرفة زمانها بأنّها صيفية أو شتوية أو ربيعية ومعرفة جيدها من رذيئها ومعرفة خواصها... إلى غير ذلك".[2] وقد استمر تأثير علم الصيدلة في أوروبا حتى القرن العشرين.

قال الله تعالى:﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [3]، وخص الكتاب بعلمه فقال:﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[4] وقال أيضا: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[5]، كما جاءت السنّة النّبوية المطهرة لتؤيد ما جاء في القرآن الكريم من حث على العلم وطلب العلم فيقول عليه الصلاة والسلام: "اطلب العلم من المهد إلى اللحد"، ويقول أيضا: "اطلب العلم ولو في الصين"[6] حيث كانت أول مدرسة في الإسلام هي دار الأرقم بن أبي الأرقم والمدرسة الثانية تدعى بيدر القراء وكانت المساجد المختصة لتعليم الكبار قبل الصغار حيث ذكر لعبدري أن المسجد هو أفضل مواضع التدريس.

---

[1]- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، د. أحمد علي الملاصي، ص 141.
[2]- المرجع نفسه، ص 143.
[3]- سورة الرحمن، الآية (1-5).
[4]- سورة المائدة، الآية (110).
[5]- سورة النساء، الآية (113).
[6]- معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، د. محمد فاروق أحمد الإمام، ص 162.

لقد بدأ تأثير القرآن الكريم والحديث واضحا أيّام الخليفة العبّاسي المعتضد بالله أواخر القرن الثالث هجري فإنه "لما أراد بناء قصره في الشماسية ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فلما سئل عن ذلك ذكر أنه يريده ليبني فيه دورا ومساكن ومقاصيد يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعلمية ويجري عليه الأرزاق السيئة ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه".[1] أيضا كانت هذه الدور من ابتكار (نيسابور) فقد كانت فيها داران للحديث أنشئتا في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري هما: دار الحديث البسطامية ودار السنة الصبخية. لكن هذه الدور لم تنتشر كثيرا وبسرعة، فلم يلحق بها من بعد سوى دار الحديث النورية التي أنشأها (نور الدين بن زكي) في دمشق بعد أواسط القرن السادس الهجري ثم لحق بها بعد ذلك دار الحديث الكاملية التي أنشأها الكامل الأيوبي في مصر ولحقت بها دور أخرى. كما ظهرت مثل هذه الدور في حلب والموصل في أيام نور الدين.

[1]- المرجع السابق، ص 173.

المبحث الثالث: دور الحضارة في الأدب واللّغة

المراد بالأدب اليوم هو فنّ الكتابة والآثار التّي يتجلّى فيها ذلك الفنّ ويمكننا تحديد مفهوم الأدب بقولنا أنّ الأدب هو مجموعة الآثار المكتوبة التّي يتجلّى فيها الإنسان بواسطة الإنشاء أو الفنّ الكتابي. فليس الأدب إذن وصف ألفاظ فحسب ، ولا هو وصف أفكار فحسب ، بل هو الفنّ الذي يحسن فيه الإنسان التعبير عن حسن التفكير ، والأدب الخالص يدلّ على شخصية الأديب ، ويكشف عن صور الحياة ويعبّر عن الخواطر والمشاعر النّفسية ، فهو صورة ناطقة لحياة الأفراد والأمم. وهكذا فالأدب هو الإنسان ، هو ذات الأديب في عالم نفسه وعالم ما دوّن نفسه متفاعلة والوجود، معبّرة عن كلّ ذلك بكلام جميل يسمّى " فنّا " « والكلام الجميل هو الكلام الذي ينفجر مع المعاني انفجارا ، ويحمل في ألفاظ تجربة صاحبه في نبض عاطفتها ، وزهو خيالها ، وإيقاع حركتها ، وهكذا فجماله في مرافقته لمعناه بحسب ما تقتضيه الحال ، أيّ في دقّة آدائه ، وحياة صوره ، وموسيقى ألفاظه ، وهذا كلّه يلرجع إلى ما سمّوه " علم البيان ". والأدب لا يكتب له الخلود إلّا إذا كان أدبا حقيقيّا ، أيّ إذا كان تعبيرا عمّا في الإنسان من إنسانية ، لأنّ إنسانيته وحدها ميزة البقاء ببقاء حياة البشر وهكذا فإذا لم يتّصل الأدب بأعماق النّفس ، وإذا لم يكن تنفسا لحقيقتها الوجودية خلا من طاقة الخلود.»[1]

« منذ عام 200هـ_ 800م بدأ الأدب يتحرك بحركات جديدة ، وأصبح ميل الشعراء إلى أن يبعثوا في النّفوس ما يرفعها إى آفاق الحياة القويّة أقلّ من ميلهم إلى أخذ ألباب النّس بمادّة جديدة للأدب وبمعان دقيقة وعاد الأدب مرّة أخرى إلى الكشف ما يحيط بالإنسان في حاضره. بل إنّ الكلام المرسل أيضا أصبح عندهم يستعمل في التعبير عن كلّ ما جدّ في الحياة من نواح متنوعة. وهكذا نشأ النّثر في الأدب.»[2]

يحكى عن قوم حوالي عام: 250هـ _ 864م أنّهم فضّلوا الكلام المنثور على المنظوم.«حيث أوّل صورة تجلّى فيها اهتمام الأدباء بما يحيط بهم إقبالهم على دراسة أخلاق العامّة

---

[1] _ تاريخ الأدب العربي ، د. حنا الفاخوري ، المكتبة البوليسية للنشر والتوزيع بيروت ، د.ط ، د. ت ، ص 07_ 08.

[2] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، تأليف الأستاذ آدم متز ، ملتزم الطبع والنشر ، دار الفكر العربي ، د.ط ، ص 317.

فمثلا حوالي ذلك الوقت ألّف أبو عقّال الكاتب كتابا في أخلاق العوام ، وصف فيهم أخلاقهم وشيمهم ومخاطباتهم وسمّاه الملهى ، وكذلك ألّف القاضي محمد بن إسحاق الصميري قاضي صمير المتوفي عام (275ه _ 888م) كتاب مساوى العوام وأخبار السفلة والأغنام إلّا أنّ الجاحظ هو أبو النّثر العربي الجديد ويعتبره الثعالبي أوّل كتّاب النّثر. وكان لا يزال في مأثور العرب قليل من النّثر الوثني المسجوع وكان المسلمون ينفرون من هذا السجع نفور المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية من الأوزان القديمة الباقية عن اليونان والرومان.»[1] ويبيّن لنا الجاحظ المتوفي عام 255ه _ 868م علّة كراهية الأسجاع فيقول:« وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر في التكلف والتصنّع أنّ كهان العرب الذين يتكهّنون ، ويحكمون لأسجاع ... قالوا : فوقع النّهى في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلمّا زالت العلّة زال التّحريم.»[2]

« وكان الشّأن الأكبر للمسيحين الذين دخلوا الإسلام خلال ذلك العهد بحيث كانوا يألّفون استعمال السجع في مواعظهم الدّينية ، وكانت طريقة كتابة الرسائل مجالا للتمرين على إظهار صور للبلاغة وأساليبها ، و لم يعدم قط بين الأدباء من لم يأبه للإعتبارات الدّينية في كراهية السجع فكان يكتب سجعا كالسجع العربي القديم الذي كان لا يزال موضع إعجاب ويقول الجاحظ أنّ عامّة أهل بغداد كانوا يحفظون رسالة إبراهيم بن سيابة إلى يحي بن خالد خالد البرمكي حيث كان فيها شيئ من السجع.»[3]« إلّا أنّ السجع قد أصبح حوالي 300ه هو الطريقة الجديدة المستحدثة عند كبراء بغداد مثل الخليفة المقتدر يكتب إلى عمّال البلاد سجعا وكذلك كان الوزير علي بن يحلى بالسجع الكثير فكانت رسائل الوزير ابن خاقان المسجوعة تقع لدى عمّال الولايات موقع الشيئ الغريب ، وكان أصحاب الدواوين يكتبون على الطريقة القديمة من غير سجع»[4] ثمّ انتشر السجع لقول ابن خفاجة:« من كتّاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخلّ به ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال وأبو الفرج المعروف بالبسّام ، ومنهم من كان

[1] _ المرجع السابق ص 318.
[2] _ المرجع نفسه ص 320.
[3] _ المرجع نفسه ص 320_ 321.
[4] _ المرجع نفسه ص 321.

يتركه ويتجنّبه وهو أبو الفضل محمد بن الحسين العميد ، وطريقة غير هؤلاء استعماله مرّة و رفضه أخرى ، بحسب مايوجد من السهولة والتيسير والإكراه والتكلّف.»[1]

« ويحكى عن الوزير ابن عبّاد ، وزير البويهين ، أنّه كان ولوعا بالسجع إلى حدّ الإفراط فيه وعن الإسكافي كان أكتب النّاس في السلطانيات إلاّ أنّه كانت توجد رسائل هامّة مثل : كتب تولية العمّال ونحوها تكتب في ديوان خاصّ يسمّى ديوان الرسائل وإبراهيم بن هلال الصابّي كان أكبر المنشئين في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري ولّما مات ألّف نقيب العلويين مع علو منزلته في الدّين»[2]، إلّا أنّ الصابي كان يعرف قدر نفسه وهو يقول مفتخرا :

« وقد علم السلطان أنّى أمينـــــه وكاتبه الكافي السديد الموّفّـــق

فيمناي يمناه ، ولفظي لفظـــــه وعيني له عين ، بها الدّهر يرمـــق

ولى فِقَرُ تضحى الملوك فقيـــــرة إليها لدى أحداثها حين تطـــرق »

لا تزال رسائل الصابي تقرأ إلى اليوم مع لذّة يحسّ بها القارئ وإعجاب بامتلاكه عنان البيان ، وهي تلبس موضوعها ثوبا من جمال الإنشاء القشيب إلّا أنّه انتقل استعمال الأساليب المحلّاة بالسجع من الرسائل السلطانية إلى الرسائل الإخوانية على أنّه في القرن الثالث الهجري كتب الأمير الشاعر ابن المعتز إلى الشاعر عبيد اله بن عبد الله بن طاهر ورسالة تعزية عن وفاة زوجته ، وقد ردّ عبيد الله على ابن المعتز شاكرا ، وكلتا الرسالتين نثر مرسل لا سجع فيهما. أمّا في القرن الرّابع الهجري فكان لا يخطر على البال أن تكتب مثل هذه الرسائل من غير أن يكون فيها سجع ، وقد عظم شأن هذا الفنّ ــ فنّ كتابة الرسائل الجيّدة ــ وكان أبو بكر الخوارزمي أشهر كتّاب الرسائل الإخوانية وقد ظلّ زمانا طويلا أكبر كتّاب العرب. حيث كانت توجّه رسائله إلى الأمراء والوزراء والقضاة والعمّال والعلماء واللّغويين ، ويظهر أنّ صيت الخوارزمي جذب إليه كثيرا من التلاميذ وخصوصا من الفقهاء حيث كان أهمّ ما عند الخوارزمي المحسّنات البديعية والسلاسة. أمّا

[1] _ المرجع السابق ص 321_ 322.
[2] _ المرجع نفسه ص 322.

الصفات الرئيسية التي اتصف بها لأسلوب الخوارزمي فهي أيضا صفات الأسلوب الساخر : وهي المبالغة والتكرار والحشو وهو يعمد إليها باعتبارها طريقة فنّية في الكتابة.

« وقد زهر شيء جديد تجاوز أسلوب الرسائل ، وهو الميل إلى القصص والحكاية ، فنجد الأدباء يذكرون في سياق رسائلهم بين حين وآخر حكايات طويلة أو قصيرة على سبيل التمثيل ، فمثلا يشبّه الهمذاني في إحدى رسائله حال الطّامع الذي يذهب به الأمل والطمع بعيدا ، والخير منه قريب ، بحال الرجل البخاري الذي ضاع حماره.» وآخر مظهر الضعف الذوق العربي الأصيل أنّه منذ القرن الثالث الهجري بدأت قصص السمر الأجنبية تحتلّ مكانا كبيرا في الأدب العربي. غير أنّ هذه الحكايات لم تكون تروق الأدباء الذين يؤثرون قراءة التراث الفنّي الذي يهزّ مكتمن النّفس والذي لا يخلو إلى جانب ذلك من زخرفة فنّية. وكانو يرون أنّها " كتاب غثّ بارد الحديث" ولكن روح ذلك العصر الجديدة التي خرجت عن النزعة العربية الأولى كانت تتّجه إلى ماهو أجنبي ، وسرعان من لم يجد غضاضة على مكانته من أن يؤلّف أسمارا من النّثر السهل ، غايتها الإمتاع والتسلية فقط.

كانت مدن العراق الكبرى مهدا لشعر المحدثين أمّ قائدهم فيعتبر بشار بن برد الذي نشأ بالبصرة لقول بشار :

« في حلّتي جسم فن ناحل لو هبذت الريح به طاحا »[1]

وكان بشار إذا أراد أن ينشد شعرا صفق بيديه ، وتنحنح ، وكانت لغة شعر بشار هي لغة كلّ الشعراء القدماء وكان عليما بأسرار اللّغة حتّى اعتبره اللّغويّون حجّة ، وحدث في الشعر ما حدث في النّثر ، ذلك أنّ الميل إلى الطرائف والمسليّات قتل في النّاس الميل إلى شعر البطولة القديم ، وقد امتدح الجاحظ لأنّ كان مؤسّس الطريقة الجديدة التي تجمع بين الجدّ والهزل ، وكذلك أعجب الأصمعي ببشار لأنّه كان أكثر تصرفا في فنون الشعر ، وأغزر وأوسع بديعا من غيره.

[1] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، د. آدم متز ، ص 337.

أمّا إسحاق الموصلي الذي كان يتحمس لمذهب القدماء فقد كان لا يعتدّ بشعر بشار : هو كثير التخليط في شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا فمنها المتناهى في الجودة ومنها غير الجيّدة ، وهو يذكر لبشار هذين البيتين:

« إنّما عظم سليمى حبّنـــى قصب السكر لا عظم الجمـــــــــل

وإذا أدنيت منها بصـــلا غلب المسك على ريح البصـــــــــل »[1]

ومن شعر بشار الذي يعتبر مستحدثا ومثالا للمعاني المبتكرة والشعر الجيّد قوله في وصف حبّه ، وهو المكفوف البصر لصوت امرأة تكلّمت معه :

« يا قوم!أذنى لبعض الحيّ عاشقـــة والأذن تعشق قبل العين أحيانـــــا

قالوا: بمن لا ترى تهدي فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب مكانا »[2]

ومن عادة الشعراء القدماء أن يشبّهوا الخدود بالورد أمّا اليوم فإنّ الورد يشبّه بالخدود يضاف بعضها إلى بعض ، وقد أنشد أحد الشعراء أمام رجل هذا البيت:

« عشيّة حيّانى بورد كأنّه خدود أضيفت بعضهنّ إلى بعض »[3]

فأعجب السّامع حتّى زحف إلى المنشد وطلب الزيادة. وقد نال أعظم الإعجاب واعتبر من البديع قول ابن الرّومي :

« يجدب من نقرته طرّة إلى مدى يقصر عن نيلـــــه

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله »[4]

---

[1] _ المرجع السابق ص 338.
[2] _ المرجع نفسه ص 339.
[3] _ المرجع نفسه ص 339.
[4] _ المرجع نفسه ص 340.

وهو يشير باللّيل والنّهار إلى لون الشاعر الأسود وجمال بياض جلد الرأس. حيث كان القدماء يفضّلون الشراب في اللّيل أو عند طلوع الفجر الأوّل في الوقت الّذي قال فيه ابن المعتز:

« حان ركوع إبريق لكـــأس ونادى الدّيك حيّ على الصبوح »[1]

وكان الصنوبري الذي يعدّ أوّل شاعر الطبيعة في الأدب العربي يجمع إلى ذلك ولوعا شديدا بالسّماء والضياء والهواء مع التطلع لأسرارها الجميلة فهو يقول في إحدى أغاني الربيع :

« إن كان في الصيف ريحان وفاكهة والأرض مستوقد والجوّ تنّـــور

وإن يكن في الخريف النّخل مخترقا فالأرض عريانة والجوّ مقـــرور

وإن يكن في الشتاء الغيث متصـلا فالأرض محصورة والجوّ مأســور

ما الدّهر إلّا الرّبيع المستنـير إذا جاء الرّبيع أاك النّـور والنّـور

والأرض ياقوتة والجوّ لـــؤلـؤة والنّبت فيروزج والماء بلّـــور

تبارك الله! ما أحلى الرّبيع! فـلا تغرر فقايسه بالصيف مغـــرور

من شمّ طيب جنيّاة الرّبيع يقـل لا المسك مسك ولا الكافور كافور »[2]

« وأكبر ما تمّ على أيدي علماء اللّغة ه تحديد معاني الكلمات وعمل المعاجم ، ونجد هنا حدّا واضحا يفصل بين عهدين وطريقتين ، وكان حمزة الأصفهاني خاتمة اللّغويين القدماء الذين كانت كتبهم لا تشتمل إلّا على عبارات للخطباء والبلغاء ، والذين ألّفوا كتبا من المترادف وأخرى يستعين بها الخطباء في الخطابة ، ففي كتابة الموازنة مثلا ذكر أربعمائة كلمة في معنى " الشقى " وكذلك جمع في كتاب الأمثال أكثر ما يعرض في لغة الخطباء من عبارات المفاضلة من نحو أبيض من الثلج وأشجع من الفيل ، وقد كان جمعه وافيا بحيث لم يضف علماء القرون الالية شيئا إليها.

[1] _ المرجع السابق ص 343.
[2] _ المرجع نفسه ص 348.

وكان سلفه قد جمع من هذه العبارات ثلاثمائة وتسعين فجمع هو ألفا وثمانمائة ، ولم يفعل الميداني أكثر من نقل ما كتبه حمزة ، واستطاع أن يزيد على كلّ فصل مثلا واحدا أو مثلين أو أربعة على الأكثر. وكذلك أخذ الميداني كلّ الشروح عن سلفه.»[1] وفيما يتعلق بالأمثال الخالصة نجد أنّ أكبر كتاب هو الذي ألّفه الحسن العسكري في القرن الرّابع. يظهر فيه مدى الأدب عناية بلغة العامّة ، وبحياتهم ممّا جعل علماء اللّغة يهتمّون بدراسة هذه اللّغة وما يعرض فيها من خطأ فألّف أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي كتابا في لحن العامّة ، ثمّ ألّف ابن خالوية بجلب كتاب " ليس في كلام العرب " أمّا ماترك لعلماء اللّغة وخصوصا للحريري فهو لموضوع بحث جديد.

« وتظهر العلاقة التكاملية بين اللّغة والحضارة في أنّ الثقافة تساعد على تطوير اللّغة وإثرائها والتأثير فيها بما تحققه من اختراع في جوانبها المادّية وسمو في الإنتاج الفلسفي والفكري والأدبي ، وما لذلك الإنتاج الثقافي (المادّي والمعنوي) من أثر في إغناء اللّغة بالمفردات والمعاني السامية والمضامين التي تزيد اللّغة ثراء وقوة ، كما أنّ نضوب معيّن الثقافة في جانبها المادّي (أي الحضاري) وتوقفها عن الاختراع المادّي ، والإنتاج الفكري ، يؤدّي في المقابل إلى وقوف تطور اللّغة في الدلالت والمعاني ، ويضيق أفق اللّغة وتعجز عن التعبير عن الأشياء المستحدثة التي لم يكن لثقافة أو حضارة تلك اللّغة فضل في اختراعها. ومن وجوه هذا الترابط بين اللّغة والثقافة والحضارة، هو العلم والتكنولوجيا.« أمّا لغتنا العربية فلها في هذا الخظم من القرآن الكريم حرز ، ومن الحضارة العربية الإسلامية ركن شديد ، ولها في نفس مسلم قدسية أضفاها عليها القرآن الكريم والدّين الإسلامي وهي التي أبدعت مصطلحات علوم تلك الحضارة السامية ، فانتشرت بها في أصقاع العالم كلّه وأنارت ظلمات العصور الوسطى ومهّدت لعصر التنوير. إنّها لغة العلم والحضارة .»[2]

وخلاصة القول : إنّ اللّغة العربية لو كانت عاجزة في ذاتها عن مسايرة التطور العلمي المنشود لهان الأمر ، ولوجدنا عذرا للمستعجلين والمشكّكين في قدرة هذه اللّغة على مواكبة التقدم

[1] _ الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري ، د. آدم متز ، ص 314.
[2] _ مستقبل اللغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء ، د. أحمد بن نعمان ، شركة دار الأمّة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1: 2008م ، ص 107.

في جميع مجالاته... ولكن الذي يبعث على الإستغراب والرثاء في آن واحد : هو أنّ معظم الأقطار العربية لا تقرّ أبدا بعجز اللّغة العربية ولاتتردّد في أن تهاجم من يتّهم العربية بالعجز.

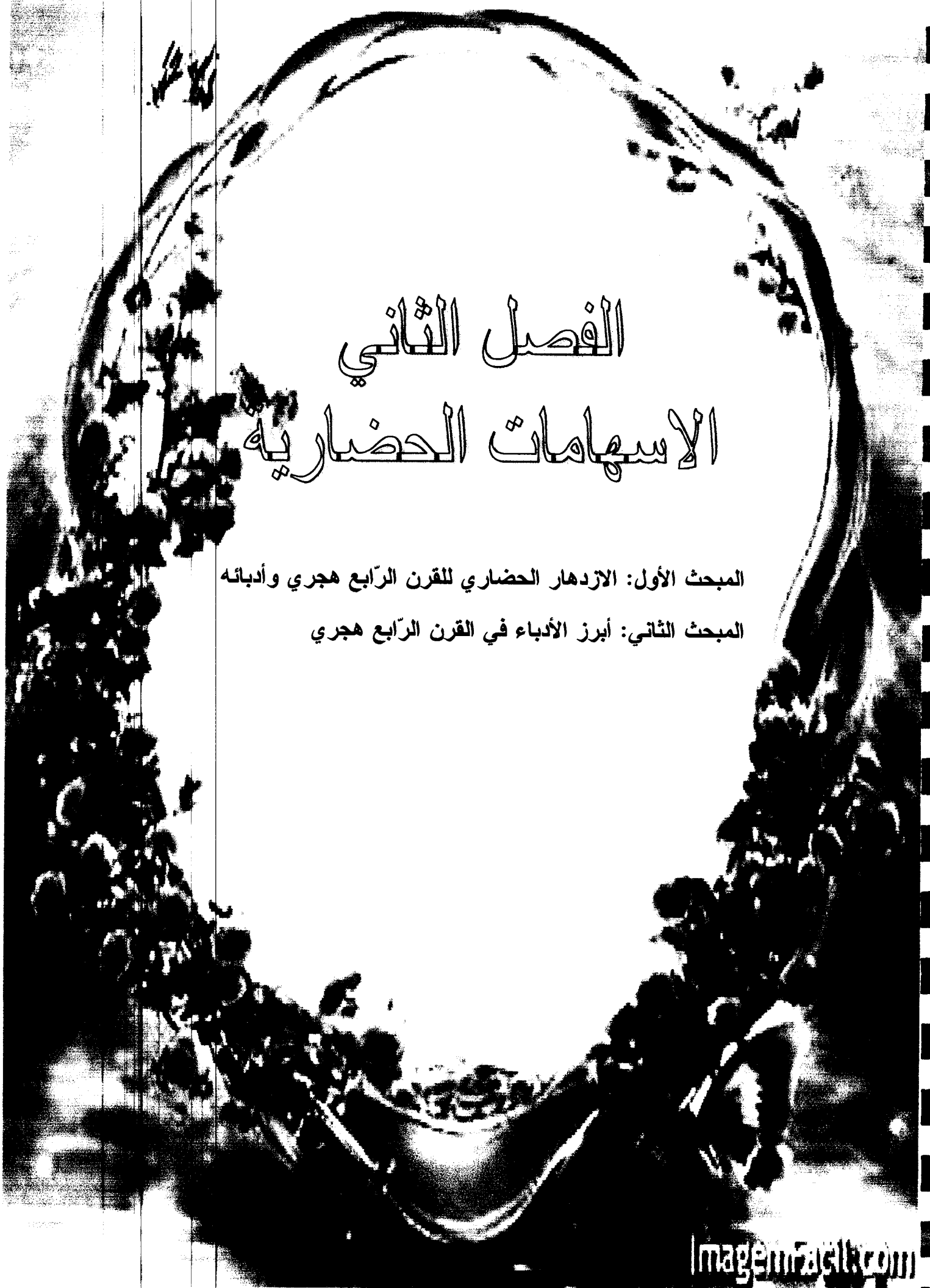

الفصل الثاني
الاسهامات الحضارية

المبحث الأول: الازدهار الحضاري للقرن الرّابع هجري وأدبائه

المبحث الثاني: أبرز الأدباء في القرن الرّابع هجري

ImageFast.com

المبحث الأول: الازدهار الحضاري للقرن الرّابع الهجري وأدبائه

القرن الرّابع الهجري من سنة 310ه إلى سنة 414ه « كان أعجوبة الأعاجيب في انقسام الملك وانتشار الفوضى وذيوع الفتنة والاضطراب والعبث.»[1] « وهو قرن التناقضات لأنّه القرن الذي بدأ فيه التدهور السياسي للخلافة العبّاسية حيث انقسمت الدّولة العبّاسية في أواخر القرن الثالث للهجري إلى دويلات صغيرة فعجّت البلاد بالقلاقل والدّسائس وفشا الذعر بين النّاس وأصبحت الأموال نهبا للطّامعين وآلت الحالة الاقتصادية إلى الفساد ، كما ساءت الحالة الاجتماعية وعمّ المكر والخداع والظلم فاندلعت الثورات وتشجّع البيزنطيون على العرب وكثرت إلى ذلك الفتن وكذلك سادت فيه ألوان من السقوط الأخلاقي كأثر من آثار فساد الحكم على المجتمع.»[2]

وإزّاء هذا الإنحطاط السياسي وجد رقيّ في الحياة العقلية ، فكأنّ العلوم والفنون لا ترقى إلاّ في عصور الفوضى والإضطراب ،« فقد نتج عن تفكك الدّولة العبّاسية أن عمد أمراء الدّول الصغيرة لأسباب سياسية أو بدافع حب الظهور أو الإبقاء على تقاليد بغداد إبّان مجدها ، إلى تشجيع العلماء ، وتقريب الفئة الممتازة من الأدباء والشعراء والعطف عليهم.»[3] « أمّا الحالة الدّينية في هذا العصر فقد ضعفت فيه العقيدة الدّينية ، فرأى النّاس في الدّين أروج التجارات في جميع الأقطار الإسلامية ، يستغلّه الطّاغي والثّائر ، وصاحب النّحلة الجديدة ويتسلّح به كلّ ذي مطمع ، لبلوغ الأرب ، فتغلّب المغرضون وأصحاب المصالح الدّنيوية بين المعتزلة يوما والشيعة يوما آخر ، عارضين كلّ سوق ما يروج فيها.»[4]

وقد كانت الحالة الاجتماعية شبيهة بالحالة السياسية فقد أعقب فقدان الإستقرار السيّاسي فساد في الوضعيين الاجتماعي والاقتصادي ، وتباعد في الطبقات الشعبية ، وسوء توزيع للثروة العامّة، فعكف فريق من الرؤساء والأغنياء على الترف والبذخ واللّهو ، وحرّم أفراد الشعب حتّى المفكّرون منهم القوّات الضروري وقد أورد التوحيدي أمثلة عن حالة البؤس الذي انحدر إليها

---

[1] _ نوابغ الفكر العربي. أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، دار المعارف بمصر ، ط2. ص 05.
[2] _ نظرية الأخلاق والتصوف ،د. وسيم إبراهيم ، دار دمشق للنشر والتوزيع دمشق سنة1994م ط1 ص5
[3] _ نوابغ الفكر العربي. أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، ص 07_08_09.
[4] _ تاريخ الأدب العربي ، د.حنّا الفاخوري ،المكتبة البوليسية للنشر والتوزيع بيروت ، د.ط ،د.ت ، ص 590.

زملاؤه المفكّرون والأدباء فقد كان أبو سليمان المنطقي السجستاني سيّد علماء عصره « بحاجة ماسّة إلى رغيف ، وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غذائه وعشائه.»[1]

وإزّاء هذا الإنحطاط عرف القرن الرّابع الهجري الإزدهار الثقافي والفكري ، فقد كان أزهى العصور العربية نضوجا وفكرا ورقيّا وعقلا ، « وقد أخذت الحضارة العبّاسية تؤتي ثمرها في كلّ فرع من الفروع والعلم والفلسفة والأدب والفنّ ، فهبت الثقافة العربية وتمّ لها ازدهار واسع في العلوم الشرعية واللّغوية وانتهى العرب من ترجمة الثقافة اليونانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية ، وتأثر العلماء العرب بها ، والذي حدث أنّ الفلاسفة نشروا آرائهم بلغة العصر التّي هي لغة القرآن ، وتأثر الأدباء بالعلوم ، من حيث أنّها الوجه الحضاري البارز فظهرت في نتاجهم فحدث انصهار هادئ للعلوم والحضارات في بوثقة الثقافة الإسلامية فكان أدب في نتائج الفلسفة ، وفلسفة في نتائج الأدباء»[2]

هذا فضلا عن المجالس الأدبية فقد انتشرت وتعدّدت مجالس علماء أو مناطقة ولغويين ، وكلّ مجلس يحضره لفيف من الأدباء والشعراء والكتّاب ، يدور الحوار في شتّى الموضوعات ، وهكذا دخل أرباب العلم وطلّابه في طور جديد ، وهو طور الإستساغة والإشتراك في المجهود العقلي الذي ترجم فكان منهم من اشتغل بالفلسفة ، وراح الكثيرون يعملون الفكرة في مخلّفات سابقيهم وترجماتهم وينقدوها ويرتبوها ويقتبسوها ويضيفون إليها ، فاستخدم الفلسفة للدفاع عن وجهات النظر المختلفة، وقد كان من كثرة الدول وتنافسها في المجد العلمي أن حرص كلّ أمير على استمالة العلماء والأدباء والشعراء وأجزل لهم الهبات ، على أن يتغنّوا بما فيه ، ويدونّوا أخباره ، ويعيشوا تحت ظلّه فينشر بهم صيته ، فقد رغب الأمراء في العلم ، وكان ذلك أبلغ الأثر في إحياء العلوم ، فقد أخذ النّاس يتسابقون في خدمة العلم كما يتسابق ملوكهم في نصرة العلماء وكذلك ساعد انتشار ونسخ وجمع الكتب وحفظها في أماكن خاصّة على انتشار العلم والثقافة.»[3]

وأمّا الكتابة فقد كانت في هذا القرن الرّابع الهجري أوسع موضوعا وأمضى أسلوبا وأبعد فكرا ومنطقا فاتسع المجال في النّثر لذوي الأفكار الثاقبة ، « فزيّنوه وجمّلوه بالتقسيم والسجع فنبغ

[1] _ نوابغ الفكر العربي. أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، ص 10.
[2] _ أدباء وفلاسفة ، د. مخائيل مسعود ، دار العلم للملايين ، بيروت 1999م ، ط2 ، ص 112.
[3] _ تاريخ الأدب العربي ، د. حنّا الفاخوري ، ص 591.

في هذا القرن أئمّة الكتّاب ونضجت فيه المواهب العربي التي تفتحت وأنشأت ثقافة جديدة وحضارة إسلامية خلّدت على مرّ العصور.»[1] وكان أبو سعيد السيرافي " عالم العالم وشيخ الدنيا ومقنع أهل الأرض" على حدّ قول تلميذه التوحيدي :" ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم ليعيش » كان الفيلسوف يحي بن عدي « يكتب في اليوم واللّيلة مائة ورقة وأكثر."

وقد تأثرت الآداب والفنون بالحالة الإقتصادية السيئة فتجمع الأدباء في قصور الخلفاء والأمراء طلبا للرزق ، وكانت حياة الأديب تجري في جوّ تسوده الدسائس والمؤامرات والتناحر ، فبعد الأديب عن المثالية وحصرت رسالته في الفوز بالمجد والثروة والشهرة من أقرب سبيل ، ولذا جفّ ينبوع العاطفة الصادقة ، وغلب على الأدب التكلف والمبالغة حتّى صرنا نرى أديبا كبيرا كالتوحيدي يخاطب أبا الوفاء المهندس معتذرا بقوله :« أنا سامع مطيع ، وخادم شكور مثلك يعفو ويصفح وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت آمر وأنت مؤتمر »[2] وشيء آخر « نتج عن فساد الحياة الاقتصادية نجد صداه في الأدب وهو أنّ أصحاب السلطات عمدوا إلى الإعتداء على الرعيّة ومصادرة الأموال سدّا لحاجتهم الإسرافية إلى المال ، ممّا دعا النّاس دفعا للشرّ عن أنفسهم إلى الظهور بمظهر الفاقة فمدحوا الفقر وذمّوا الغنى ومرّت فيهم روح الكآبة ، وذمّ الزمان وأهله والشكوى من الظلم ، فقويت نزعة التصوف والتوكل فأحدثت تيّارات فكرية نراها ماثلة في أدب هذا العصر بصورة عامّة.»[3]

فقد كان هذا العصر بجوانبه السيّاسية والدّينية والثّقافية والاقتصادية التي طبعها التعدّد والصراع منارا للنزعات الجديدة في مجال الأدب والفكر.

ذلك أنّ ميادين العلم والأدب فيه متنوعة، « ففي علم الفقه والحديث محمد بن جرير الطبري، المفسر المحدّث المؤرّخ المتوفى 310ه ببغداد، وله مذهب ارتضاه لنفسه لم يقلّد فيه أحدا. وهنالك من الأحناف أبو الحسن عيد الله الكرخي رئيس الحنفية في العراق 340ه ، وأبو بكر الجصّاص 370ه والقدوري توفي سنة 328 ومن الشافعية أبو علي الحسن بن القاسم الطبري

[1] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. الصبّاح محمد علي ، دار الكتب العلمية بيروت 1990م ، ط1 ، ص 16.
[2] _ نوابغ الفكر العربي. أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، ص 10.
[3] _ المرجع نفسه، ص 11.

البغدادي صاحب المؤلفات الكثيرة 305ه وأبو إسحاق المروزي 340ه وأبو الحسن الماوردي مؤلف الأحكام السلطانية توفي سنة 450ه. ومن الحنابلة أبو بكر عبد الله بن داود الأزدي توفي سنة 316ه وهو من أكابر الحفّاظ. ومن المالكية ابن القصّار قاضي بغداد توفي سنة 398ه ومن المحدّثين أبو بشر محمد الدّولابي 320 وله مؤلفات في الحديث والتاريخ. وفي علم الكلام أبو الحسن الأشعري خرج على مذهب أستاذه وألّف كتابا في الردّ عليه والمعتزلة في كثيرمن آرائهم كقولهم بخلق القرآن والإختيار المطلق ووجود العدل على الله (....) إلى غيرهم.»[1]

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ملتزم الطبع والنشر مكتبة نهضة مصر ، ومطبعتها مصر ، ط2 ، ص 35_ 36.

المبحث الثّاني: أبرز الأدباء في القرن الرّابع الهجري

يقول آدم متز : « إنّ رسائل القرن الرّابع الهجري هي أجمل آية للفنّ الإسلامي ومادّتها أنفس ما اشتغل به الفنّانون وهي اللّغة ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التي صنعتها أيدي الفنّانين في ذلك العهد من الزجاج والمعادن لاستطعنا أن نرى في هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق وامتلاكهم لناصية البيان في أصعب صوره ، وتلاعبهم بذلك تلاعبا (.....) إلى أن يقول : هذه الطريقة بما فيها من زخارف كثيرة جعلت اللّغة سلسة القياد ، قوية التعبير ، وزادتها تلطيفا رغم الإختصار ، وهي الطريقة التي لجأ إليها كلّ الذين كانوا يريدون التعبير عمّا في نفوسهم ، مراعين في ذلك غاية ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية في التعبير. »[1]

يتجلى لنا من هذا التعريف أنّه كان في القرن الرابع الهجري كتّاب يجولون في الموضوعات الثقافية ، ويغذون عقولهم وقراءهم بألوان المعرفة ، يصورونها بأقلامهم الفنية ويهتمّون بالتعبير القوي عن أفكارهم في غير تنميق أو تزويق ، ومن هؤلاء : أبو حيّان وأبو إسحاق الصابي وابن مسكويه والشريف الرضيّ. وكان في العصر كتّاب آخرون جل موضوعاتهم رسائل ديوانية وإخوانية ومقامات وعهود وطريقتهم تعتمد على إيثار اللفظ والصناعة منهم : ابن العميد وبديع الزمان والخوارزمي وابن عبّاد.

وفيما يلي ألقي نظرة موجزة حول حياة هؤلاء الأعلام :

« أبو إسحاق الصابي المحسن بن إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ أبو علي بن أبي إسحاق صاحب الرسائل »[2] «313هـ_ 925م _ 384هـ _ 994م »[3]، كان أديبا فاضلا بارعا ، قد لقي الأدباء والعلماء وأخذ عنهم كأبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي وأبي عبيد الله المرزباني ، مات في ثامن محرم سنة إحدى وأربعمائة عن ابنه هلال وله شعر حسن من مثله وكان

---

[1] _أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم الطبع والنشر ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها مصر ، الطبعة الثانية، ص 365 _ 366

[2] _ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تصنيف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، المجلد الخامس ، دار الكتب العلمية بيروت _ لبنان ، ط1 : 1411 ه _ 1991م ، ص 56

[3] _ موسوعة الأدب والأدباء في العرب في روائعهم ، إعداد إميل بديع يعقوب ، ج 5 ، العصر العبّاسي الأوّل ، جميع الحقوق مطبوعة للناشر ، ط1 : 2006م ، ص 172

بوجهه شامة حمراء فكان يعرف بصاحب الشامة وابنه هلال بن المحسّن أعلى مترلة منه ومات هذا على دين أبيه.»[1]

وأحمد بن محمّد بن يعقوب الملّقب مسكويه أبو علي الخازن ، صاحب التجارب ، مات فيما ذكره يحي بن مندة ، في تاسع صفر ، سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ، قال أبو حيّان : وقد ذكر طائفة من متكلمي زمانه ثمّ قال :وأمّا مسكويه ففقير بين أغنياء ، وغنيّ بين أنبياء لأنه شاذ ، وإنّما أعطيته في هذه الأيّام صفو الشرح لإيساغوجي وقاطيغورياس من تصنيف صديقا بالريّ وقال أبو حيّان : فإنّ ابن العميد اتخذوه خازنا لكتبه وأراد أيضا أن يقدح ابنه به ، ولم يكن من الصنائع المقصودة والمهمّات اللازمة وكان يحتمل ذلك لبعض الغرارة بظله والتظاهر بجاهه حيث قال ياقوت : وكان مسكويه مجوسيا وأسلم ، وكان عارف بعلوم الآوائل معرفة جيّدة وله في ذلك كتاب الفوز الأكبر وكتاب الفوز الأصغر وله كتاب أنس الفريد.»[2]

ونذكر « الشريف الرّضيّ « 359ه/970م _ 406ه/ 1015م » محمد بن الحسين بن موسى الكاظم عالم ، أديب وأشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم ، كان والده نقيبا للطالبيين رئيسا دينيا للعلويين ، نشأ في بغداد وبرع في علوم الفقه واللّغة والأدب وقال الشعر وهو ابن خمس عشرة سنة »[3] « في سنة 401ه/ 1011م منحه الأمير البويهي بهاء الدين لقب الشريف ثمّ عيّنه نقيبا للطالبيين سنة 402ه ثمّ ضمّت إليه الأعمال التي كان يقوم بها والده وهي النظر في المظالم والحج بالنّاس ، كان أبيّا عالي الهمّة ، طموحا لم يقبل صلة أو جائزة من أحد ، خافه المقتدر العبّاسي واتهمه بالميل إلى الفاطميين والعلويين فعزله عن المظالم والحج توفي ببغداد ، له عدة مؤلفات منها ديوان شعر والمجازات النّبوية وتلخيص البيان عن مجاز القرآن وحقائق التأويل في متشابه التنزيل وخصائص أمير المؤمنين عن أبي طالب. كان الشريف الرّضيّ شاعرا بارعا جزل

[1] _ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تصنيف ياقوت الحموي ، ص 56

[2] _ معجم الأدباء في عشرين جزءا د. الحموي المجلد الثالث دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الثالثة 1400ه - 1980م ص 05 _ 10 _ 17

[3] _ موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم الجزء السابع العصر العبّاسي (2) د. إميل بديع يعقوب جميع الحقوق محفوظة للناشر ط 1 2006 م ، ص 748.

اللّفظ فخم المعنى فيه عذوبة وطلاوة على كثرة تكلفه في معان يقرب جناها الرثاء والغزل العفيف والحكمة والزهد والمديح والتغزل بالبقاع الشريفة في الحجاز خاصة.»[1]

بالإضافة إلى « علي بن محمد بن الحسين بن محمد أبو الفتح ابن العميد »[2] « نحو300ه/ نحو 912م _ 360ه/ 971م »[3] « الملّقب بذي الكفايتين ، كفاية السيف وكفاية القلم ، وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه بعد أبيه وبذل مالا في ذلك ثمّ وزير لابنه مؤيد الدولة بويه بالريّ وأصفهان تلك الأعمال ، وورد إلى بغداد صحبة عضد الدولة بن ركن الدولة لنصرة عز الدولة باختيار قتل على ما يجيء شرحه إن شاء الله تعالى في سنة ست وستين وثلاثمائة ، ومولد في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة كذا ذكر ابن الصابي كان أديبا فاضلا بليغا قد اقتدى بأبيه في علو الهمّة وبعد النشأ في الكرم والفضل »[4] وفي ابن العميد يقول بعضهم :

« مررت على ديار بني العميد فألقيت السعادة في خمود

فقل للشامت الباغي رويدا فإنّك لم تبشر بالخـــلود »[5]

« وأحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بديع الزمان الهمذاني أبو الفضل قال أبو شجاع شيرويه بن شهرزاد في تاريخ همذان : إنّ أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر أبا الفضل الملّقب ببديع الزمان سكن هراة روى عن أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا وعيسى بن هشام الأخباري وكان أحد الفضلاء والفصحاء متعصّبا لأهل الحديث والسنّة ما أخرجت همذان بعده مثله ، وكان من مفاخر بلدنا ، روى عنه أخوه أبو سعد بن الصفّار ، والقاضي أبو عبد محمد عبد الله بن الحسين النيابوري قال : وتوفي في سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وقتل مسموما ، وهو صاحب

---

[1] _ المرجع السابق ص 749

[2] _ معجم الأدباء في عشرين جزءا د. الحموي . المجلد السابع ، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة : 1400ه _ 1980م ، ص191

[3] _ موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم ، العصر العباسي الأوّل ، ج 5 ، د. إميل بديع يعقوب ، جميع الحقوق محفوظة للناشر ، ط1 ، ص 40

[4] _ معجم الأدباء في عشرين جزءا د. الياقوت الحموي ، ص 192

[5] _ المرجع نفسه ص 196

الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة وعلى منواله نسج الحريري مقاماته »[1] «358ه/ 969م _ 398ه/ 1008م».

ونجد الخوارزمي ، هو أبو عبد الله محمد بن موسى « 182م _ 232ه / 798م _ 846ه » « والخوارزمي نسبة إلى خوارزم من أعمال روسيا حاليا والتي ولد بها. أمّا عن طفولته وحياته الأولى فقد اكتنفها الغموض نظرا لأنّ معظم كتب التراجم والمراجع العربية لم تتضمن معلومات كافية عن هذه الفترات من حياته. وقد نشأ الخوارزمي في إقليم خوارزم وكان هذا الإقليم من أعظم مراكز الثقافة الإسلامية ، حيث كانت خوارزم سوقا للحركة العلمية وفيها نشأ كثير من العلماء الذين اتصلوا ببيت الحكمة المأموني ببغداد. وقد توافرت للخوارزمي كل الأسباب التي جعلته ينال حظا وافرا من العلوم الرياضية والفلكية. يعتبر الخوارزمي أول من كتب في علم الجبر والمقابلة بحسب ابن خلدون الذي يصنّفه ضمن فروع الحساب ومع أنّ الخوارزمي قد اشتهر بأعماله الرياضية أكثر من الفلكية فابن النّديم يروي أنّه كان منقطعا إلى خزانة الحكمة للمأمون ، وهو من أصحاب علوم الهيئة وله من الكتب كتاب الزيج نسختين أولى وثانية ، كتاب الرخامة ، كتاب العمل بالإسطرلاب ، كتاب عمل الإسطرلاب ، كتاب التاريخ.»[2]

بالإضافة إلى « اسماعيل بن عبّاد بن العبّاس ابن عبّاد الوزير الملّقب بالصّاحب »[3] « 326ه/ 938م _ 385ه/ 995م »[4] ، كافي الكفاة أبو القاسم ، من أهل الطالقان ، وهي ولاية بين قزوين وأبهر وهي عدة قرى يقع عليها هذا الإسم وبخراسان بلدة تسمّى الطّالقان غير هذه ، خرج منها جماعة من أهل العلم ، هكذا نسبه المحدّثون وقد قال الرستمي شاعره ، يهنئ ابن عبّاد :

يهني ابن عبّاد بن عبّاس بن عبد الله نعمى بالكرامة تردف.

---

[1] _ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تصنيف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرّومي الحموي ، المجلد الأوّل ، دار الكتب العلمية بيروت _ لبنان ،ط1 : 1411ه _ 1991م ، ص 265 _ 266

[2] _ نماذج لعلوم الحضارة الإسلامية وأثرها في الآخر ، د. خالد حربي ، النّاشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الطبعة الأولى : 2006م ، ص 15 _ 16

[3] _ معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، تصنيف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرّومي الحموي ، المجلد الثاني ، دار الكتب العلمية بيروت _ لبنان ، ط1 : 1411ه _ 1991م ، ص 213

[4] _ موسوعة الأدب والأدباء العرب في روائعهم ، د. إميل بديع يعقوب ، الجزء السابع ، العصر العبّاسي (2) ، ص 786

ويقال عنه أنّه أوّل من أدخل كتاب العين للخليل إلى الأندلس وألّف قاسم كتابا في شرح الحديث ممّا ليس في كتاب أبي عبيدة ولا ابن قتيبة ، سمّاه كتاب الدلائل بلغ فيه الغاية في الإتقان ومات قبل كماله فأكمله أبوه ثابت بعده وكان قاسما عالما بالحديث والفقه متقدما في معرفة الغريب والنحو والشعر وكان مع ذلك ورعا ناسكا ، قال ابن الفرضي : قرأت بخط الحكم المستنصر بالله توفي قاسم بن ثابت سنة اثنتين وثلاثمائة بسرقسطة. حيث كان نادرة الدهر وأعجوبة العصر في فضائله ومكارمه وكرمه ، أخذ الأدب عن أبي الحسين أحمد بن فارس اللّغوي، صاحب كتاب المجمل في اللّغة وأخذ عن أبي الفضل ابن العميد وغيرهما. »[1]

[1] _ معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، د. ياقوت الحموي ص214

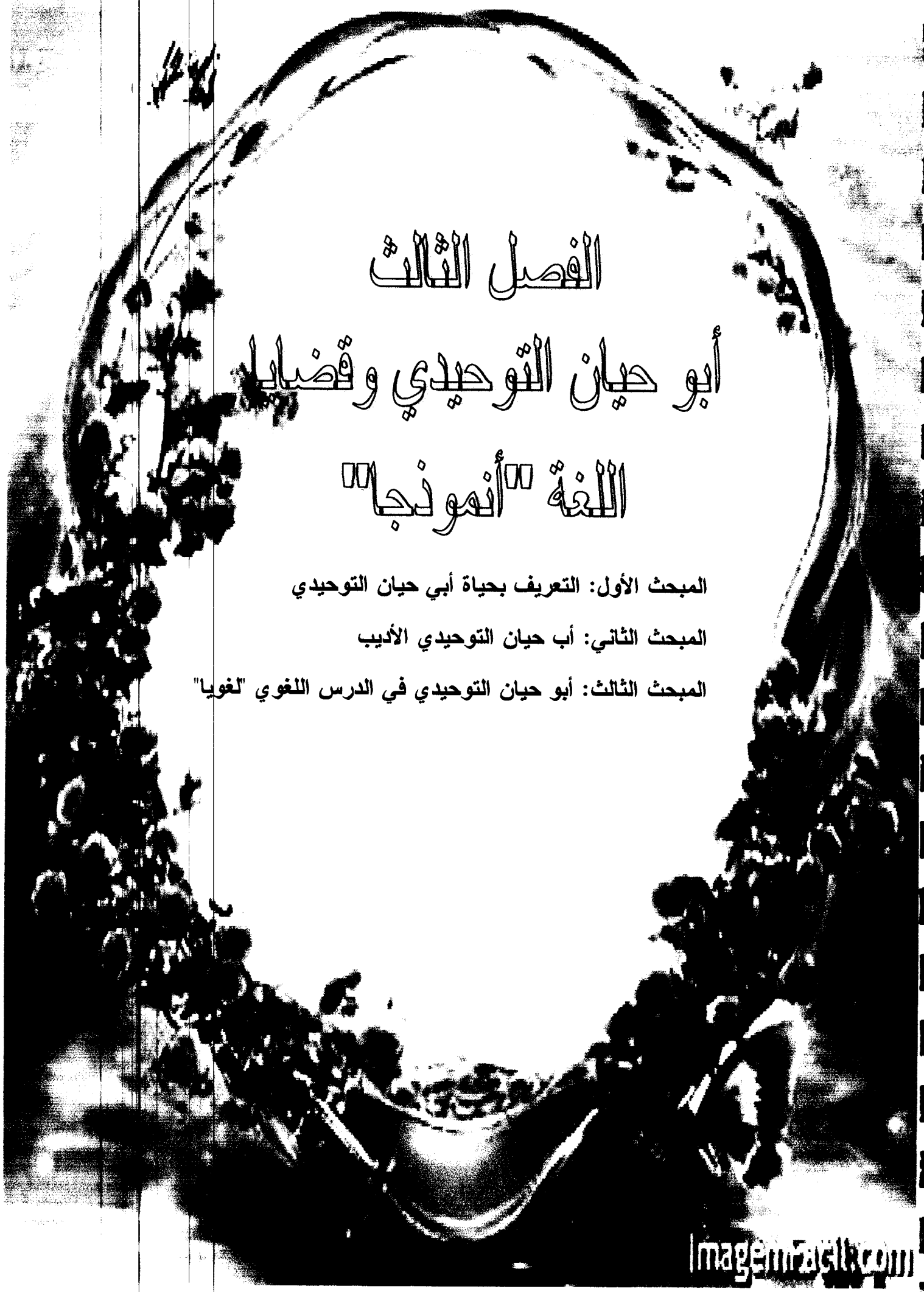

الفصل الثالث

أبو حيان التوحيدي وقضايا اللغة "أنموذجا"

المبحث الأول: التعريف بحياة أبي حيان التوحيدي

المبحث الثاني: أب حيان التوحيدي الأديب

المبحث الثالث: أبو حيان التوحيدي في الدرس اللغوي "لغويا"

Image-Arabic.com

المبحث الأوّل: التعريف بحياة أبي حيّان التوحيدي

« هو علي بن محمد بن العبّاس ، وكنيته أبو حيّان ، ولقب بالتوحيدي لأنّ أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد ، اسمه التوحيد وعليه حمل بعض من شرح ديوان المتنبي قوله :

« يترشّفن من فمي رشفات هنّ فيه أحلى من التوحيد »

ويرى ابن حجر العسقلاني أنّ هذا اللّقب يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد الذي هو الدّين لأنّ المعتزلة يسمّون أنفسهم أهل العدل والتوحيد.»[1]

وإذا جلنا في البحث عن أصله ومولده ووفاته نجد تضاربا في الآراء وهذا راجع إلى قول ياقوت عنه: « لم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه ضمن خطاب وهذا من العجب العجاب »[2] فهو عند ياقوت « شيرازي الأصل وقيل نيسابوري ووجدت بعض الفضلاء يقول له الواسطي. »[3]

« ونقل السيوطي عن ياقوت أنّه شيرازي أو نيسابوري ، أمّا على أنّه عربي الأصل كما ذكره الأستاذ محمد كرد في كتابه "أمراء البيان" هناك أدلة كثيرة على عربيته أقوى من الأخذ بما ذكره ياقوت بأنّه فارسي ، فليس من مؤلفات أبي حيّان ما يشير على فارسيته من قرب أو من بعد ، ولو أنّه كان يمت إلى فارس بصلة النسب لباهن بذلك في عصر كان الدولة فيه للفرس وكانت صلته بأمرائهم وحكّامهم في القرن الرابع الهجري أمله وهدفه ، وإذا ما تذكّرنا كنيته واسمه واسم أبيه وجده ولقبه ، لرجحنا أنّه عربي صميم ، فهو أبو حيّان علي بن محمد بن العبّاس التوحيدي. ثمّ إنّ ابن حيّان نفسه صرّح بأنّه يجهل الفارسية وليس لنا أن نغفل تعصبه للعرب ، ورده على الشعوبية ، فقد مدح العرب في جاهليتها وإسلامها ، وأثنى من أخلاقها وطباعها ولغاتها ، وعجب أشدّ العجب من الجيهاني أنّه سبّ العرب في كتابه ، وتناول أعراضهم وحطّ من قدرهم وردّ على تهجمه بمثله فتنقص الفرس ونال منهم. »[4]

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم للطباعة والنشر القاهرة 1957 ، ج1 ، ص9

[2] _ معجم الأدباء ، د. ياقوت الحموي ، دار الكتب العلمية بيروت 1991 ، ج4 ، ص 288

[3] _ المرجع نفسه ص 287

[4] _ أبو حيّان التوحيدي ، د.أحمد محمد الحوفي ، ص 26 _ 27

ومهما يكن من قوة هذه الإستدلالات أو ضعفها على عربيته ، تبقى مجرد استنتاجات، يقول عبد الأمير الأعسم :« لا نرى في هذا النزاع حول نسب التوحيدي أهمية ذات أثر على القيمة الحضارية لأنّ ابن حيّان إذا تعصّبنا لعروبته أو حكمنا لفارسيته ، بقدر ما يهمّنا أنّه ابن الحضارة الإسلامية. »[1]

وإذا بحثنا عن تاريخ ميلاده ووفاته نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة وكما يقول الحوفي: « كثيرا ما نجد عسرا في الكشف عن مولد عالم أديب أو عظيم من القرون الخالية ، لأنّ النّاس لم يكونوا يقيّدون أبنائهم كما نفعل الآن ، ولقد يرتبط مولد الشخص بحدث جلل ، على زمن استهلاله على هذه الأرض » ، ويقول « لكن في تاريخنا لأبي حيّان نلقى عشرين عسرا في عسر في تعرّف مولده وعسر في تعرّف وفاته ، كأنّما اتفق النّاس على إهماله ميّتا كما أهملوه حيّا »، ونكتفي بقول السندوبي أنّه ولد سنة 312ه معتمدا على أنّه كتب رسالة إلى القاضي أبا سهل علي بن محمد ليعتذر زمنه على إحراق كتبه يذكر فيها بأنّه في عشر التسعين »[2]، والذهبي في "ميزان الإعتدال" « أنّ وفاة التوحيدي كانت سنة 400ه »[3] وتأكيدا لهذا الرأي « نذكر دائرة المعارف الإسلامية أنّ دليل مقبرة شيراز يزعم أنّ قبر التوحيدي في شيراز يجعل وفاته سنة 414ه »[4]

وبالنسبة لنا تظل حياة أبي حيّان مجهولة ، إلاّ ما استنتج من حديثه ورسائله ، « فقد عاش التوحيدي طفولة معذبة »[5] « إذ فقد أباه الذي كان يبيع التوحيد ببغداد. وهو نوع من التمر. ولم يجد من يكلفه سوى عمّه الذي اشتهر ببخله فكان يعد عليه الأرغفة التي يأكلها ، وعاش وحيدا بعد أن استقل من عمّه »[6] ، وكان هذا الحرمان سببا في التجائه إلى الدرس والتحصيل على ما يجد فيه تعويضا عن بعض ما فاته من نعم الحياة ، ويتأيد هذا الظنّ إذ عرفنا أنّ

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي في كتاب المقابسات ، د. عبد الأمير الأعسم ، دار الأندلس بيروت ، ط 2 ، ص 55

[2] _ أبو حيّن التوحيدي ، د. الحوفي ، ج1 ، ص 23

[3] _ ميزان الإعتدال في نقد الرجال ، د. الذهبي الحافظ ، دار إحياء الكتب العلمية مصر ، 1963م ، ج4 د.ط ، ص 518

[4] _ فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيّان التوحيدي ، د. حسين الصديق ، دار القلم العربي دمشق 2003م ، ط1 ص 68

[5] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. إبراهيم زكريا ، المؤسسة المصرية العامّة للنشر والتأليف القاهرة ، د.ت ، د.ط ص 18

[6] _ من قضايا النثر الفنّي في القرن الرابع الهجري وما بعده ، د. فوزي عيسى ، دار المعرفة الجامعية القاهرة 2002م د.ط ، ص 11

اهتمام أبي حيّان بالعلم والدراسة قد صرفه عن التفكير في الزواج وإنجاب النّسل ، فلم يعرف عنه أنّه تزوج أو رزق بالأولاد بدليل قوله هو نفسه : « أنّ ظل طوال عمره لا يجد حوله ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحبا قريبا، وتابعا أديبا ، ورئيسا منيبا » ، ويظهر أنّ ميله إلى التنقل ، وولعه بالأسفار ، حالا بينه وبين الاستقرار و لم يكن وسعه أن يفكر في تكوين الأسرة أو أن يقنع من العيش بتربية بعض الأبناء »[1]

اشتغل بحرفة الوراقة ونسخ الكتب ببغداد ، ولكنّه لم يقنع بتلك الحرفة التي سمّاها " حرفة الشؤم " لأنّ فيها ضياع العمر والبصر على حد قوله. فكان جميل الخط ، دقيق النّقل ، خبير بالتصحيف والتحريف ، ويقول أنّه قد ملّ حرفة النسخ وملّ ذكرها ، وقد ذكر في حديث له : « لقد استولى عليّ الحرف وتمكّن منّي نكد الزمان إلى الحد الذي استرزق ، مع صحة نقلي وتقييد خطّي ، وتزويق نسخي وسلامته من التصحيف والتحريف ، بمثل ما يرتزقه البليد الذي ينسخ النسخ ، ويمنح الأمل والفرح »[2]. « لم تحقق مهنة الوراقة طموحات أبي حيّان ، وظلّ يكافح ويجاهد ويجوب الأقطار، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون عمله وأدبه ، فلم يحظ من ذلك بطائل وعاش كما يقول في بعض كتبه نحو أربعين درهما في الشهر ، في المقابل رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظّون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوفير »[3] ، فكان من ذلك التجاؤه إلى الحسن بن محمد المهلبي وزير معز الدولة البويهي وكان مكرما للعلم والعلماء ، عطوفا على الأدباء والمفكرين ، على أنّ العلاقة لم تلبث أن ساءت بينهما لمجاهرة التوحيدي ببعض الآراء التي لم يرضى عنها المهلبي فنفاه من بغداد بحجّة الزندقة.»[4]

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " د. إبراهيم زكريا ، ص 18 _ 19

[2] _ من قضايا النثر الفنّي في القرن الرابع الهجري وما بعده ، د. فوزي عيسى ، ص 11

[3] _ مقدمة الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي ، د. أحمد أمين ، موقع للنشر الجزائر 1989م ، ج1 ، د.ط ص 01

[4] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. الصبّاح محمد علي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 : 1411ه _ 1990م ، ص 30

« خرج التوحيدي من بغداد ولم يعد إليها سنة 352ه ، لم يغادرها إلاّ للحج سنة 358ه»[1]، « وتعرّف في مكّة على جماعة من الصوفية منهم ابن جلاء والحراني »[2] ، وكان التصوف هو الذي حفزه إلى الحج على قلّة الزاد وانعدام الراحلة. « وعاد إلى بغداد سنة 354ه»[3]

« تجدّد الأمل مرة أخرى في نفس التوحيدي ، وخرج من بغداد إلى الريّ فاتصل بأبي الفضل بن العميد وكان وزيرا أديبا قصده الشعراء والأدباء لمكارمه وجوده ، وكان بلاطه منتدى لأهل الفكر والعلم إلّا أنّ حظ التوحيدي لم يكن سعيدا فعاد من حيث أتى صفر اليدين ، وكذلك جرى له مع أبي الفتح بن أبي الفضل العميد عندما تولّى الوزارة بعد أبيه » [4] ، وكان يأمل أن يجد عنده مايردّ غائلة الفقر فخاب أمله » [5] ، حيث قابله بالصدور والإعراض إثر الرسالة التي حملها إليه ، ويبدو فيها الرياء والملق والإستجداء ، ويحطّ أبو حيّان أخير رحّالة في فناء الصاحب بن عبّاد وزير مؤيد الدولة البويهي حيث عرض عليه خدماته ، فجعله ورّاقا في داره سنة 367ه وظلّ ينسخ ثلاث سنوات على غير رضى منه دون أن يحصل على شيء ، فرجع عنه ذا ماله بل اجتهد كثيرا في النيل من كرامته والغض من مكانته.»[6]

وفي سنة 370ه عاد أبو حيّان إلى بغداد مكلوما ، مقروح النّفس من حظه النكد العاثر، فاشتغل في بيمارستان المدينة مدة من الزمن ، قبل أن يوصله صديقه أبو الوفاء المهندس بالوزير أبي عبد الله الحسن بن سعدان وزير صمام الدولة البويهي فقد سامره التوحيدي ليالي عدة [7] ، إلّا أنّ قدر التوحيدي في الحياة لا تبديل له ، وتكون بذلك علاقته بهذا الوزير آخر صلاته بالوزراء وذوي الشأن، إذ انتهت هذه العلاقة بينه وبين ابن سعدان بعد مقتل هذا الأخير سنتين فقط من اتصال أبي حيّان به ومسامرته له [8]. وبعد سنة 375ه أي بعد مقتل الوزير ابن سعدان ، كانت فترة شقاء وخصاصة عاشها أبو حيّان متصوفا متردّدا بين بغداد وشيراز ، وأبرز ما وقع في هذه الفترة عمده

[1] _ المجتمع والرؤية : قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي ، د. الحبيب شبل ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت 1993م ، ص12
[2] _ تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة 1980م د.ط ، ص 454
[3] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إحسان عبّاس ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت 1956م ، د.ط ، ص 44
[4] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. الصبّاح محمد علي ، ص 30
[5] _ المجتمع والرؤية : قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي ، د. الحبيب شبل ، ص 12
[6] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، ص30 _31
[7] _ المجتمع والرؤية : قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي ، د. الحبيب شبل ، ص 13
[8] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، ص 31

إحراق كتبه سنة 400ه ظنّا بها على من لا يعرف قدرها وانتقاما من النّاس الّذي عاش بينهم محروما [1]، إلّا أن عكف إلى حياة أخرى هي العبادة والزهد وبقي على هذه الحالة حتّى توفي سنة 414ه بشيراز ودفن بها.[2] وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل الذي عاش معذّبا في دنيا النّاس ، فقد إيمانه بالإنسان ويئس من جميع خلق الله ولكنّه ظلّ مع ذلك متمّسكا بأهداب الحياة متعلقا بحبل الله[3] فمدح وأطرئ وبكى واشتكى وهدّد وأوعد ، فما نفعه مدحه ولا ذمّه ولا اطراؤه ولا هجاؤه لذا يقول أحمد أمين في مقدمة الإمتاع والمؤانسة : « فإن استفاد شيئا ممّا عاناه أبو حيّان فإنّما هو الأدب بما ألّف وكتب وبما هجا واستعطف»[4]

ثقافته:

« كان القرن الرابع عصر النضج الثقافي والعلمي ، وكان أبو حيّان موسوعة جامعة أو دائرة معارف (متحركة) لأكثر هذه الثقافة ، فهو عالم واسع المعرفة ، متنوع الثقافة ، خبير باللّغة والنحو والأدب والتصوف والفقه والفلسفة وعلم النّفس وعلم الحيوان وعلم النبات »[5]

يذكر ياقوت أنّ التوحيدي :« كان متفنّنا في جميع العلوم من النحو واللّغة والشعر والأدب والفقه والكلام (.....) فهو شيخ في الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء وعمدة لبني ساسان فردّ الدنيا الذي لا تطير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه واسع الدراية والرواية.»[6]

وقال عنه السبكي : « وكان إماما في النحو واللّغة والتصوف فقيها مؤرخا » ، أمّا ابن حجر العسقلاني فيقول : « قال ابن النّجار في الذيل كان أبو حيّان التوحيدي فاضلا لغويا نحويا شاعرا له مصنفات حسنة »[7]

---

[1] _ المجتمع والرؤية : قراءة نصية في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي ، د. الحبيب شبل ، ص 13
[2] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، دار المعارف القاهرة ، د.ت ، ط4 ، ص 35
[3] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. إبراهيم زكريا ، ص 64
[4] _ مقدمة الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي ، د. أحمد أمين ، ص 01
[5] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم للطباعة والنشر القاهرة 1957م ج1 ، د.ط ، ص 29
[6] _ معجم الأدباء ، د. ياقوت الحموي ، دارالكتب العلمية بيروت 1991م ، ج4 ، ط1 ، ص 288
[7] _ نظرية الأخلاق والتصوف ، د. وسيم إبراهيم ، دار دمشق للنشر والتوزيع دمشق 1994م ، ط1 ، ص 40

لقد تميزت ثقافة التوحيدي ، بالتّنوع والتعميق ، والإبداع ، فأمّا عن التّنوع فنجده في المدى الواسع في مجالات الفكر التي يتناولها بالسرد أو النّقل أو المناقشة وإبداء الرأي في هذه الإتجاهات المختلفة أمّا التعميق فنلمحه في عرضه لهذه الأفكار والإتجاهات المختلفة ، وإبداعه كان في أكثر من جانب وأولّها هذه الموسوعة التي تميّز بها في خاصية الإتفاق أو الموافقة بين هذه المعارف فنجده قد فلسف الأدب ، وأدّب الفلسفة حتّى يأتي وصف ياقوت له بأنّه " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"، وقد كانت عمق ثقافته وتنوعها معا مكملين لإبداعه الذي تمثّل في الإستفاذة من هذه المعارف في المناقشة ومقارنة الفكرة بالفكرة وإيضاح الغامض وتحديد المعنى تحديدا واضحا ، وقد قيل أيضا : « إنّ التنوع الشديد في ثقافة أبي حيّان هو الذي أعطاه الحق في أن يقرن نفسه بالجاحظ حتّى غدا البعض متجاوزا في تقديره (.....) فإذا كان الجاحظ أستاذ علماء الكلام في الأدب في القرن الثالث فأبو حيّان كان أستاذ الفلاسفة في القرن الرّابع ، فلقد اتسم تراث أبي حيّان بمزية الإختصاص إضافة إلى التّنوع »[1] ، لذا قال عنه ياقوت : « كان جاحظيا يسلك في تصانيفه مسلكه ، ويشتهي أن ينتظم في مسلكه ، فهو شيخ في الصوفية.»[2]

والواقع أنّ هذه « الثقافة الموسوعية لم تكن تتوفر للتوحيدي في خلال زمن قصير وإنّما كانت نتيجة سنوات عديدة من القراءات المتواصلة والمستمدة على الكثيرين من مشاهير عصره »: فمن أين استقى أبو حيّان كل معارفه هذه؟ وكيف استطاع أن يجمع أفانين من المعرفة؟ ويزاوج بينها؟

لقد استقاها أوّلا من « الكتب التي قرأها ونسخها ، والحقيقة تقال أنّه كان لمهنة الوراقة أثر بارز وأساسي على ثقافة أبي حيّان ، فلقد أفسحت له المجال لقراءة شتّى أنواع الكتب وأشكالها ، فقويت حافظته وتوقّد ذهنه واتسعت مداركه وتنوعت ثقافته »[3] فكانت تتيح له أن يقرأ الكتب على تمهل ، وينقل ما يشاء منها ويردّد النظر كما يهوى ويسرت له أن يطلع على النادر النّافع من الكتب، والتوحيدي لا يدعي ما ليس عنده ، بل هو أقرب إلى التواضع منه إلى أي شيء آخر ، إذا

[1] _المرجع السابق ص 27 _ 28
[2] _ معجم الأدباء ، د. ياقوت الحموي ، ص 29
[3] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط1 ، ص25

كان المرء متعلّقا بالعلم والعلماء وهو مع كثرة الموضوعات التي يكتب فيها نجده في جلها متمكنا من موضوعه محيطا بدقائق علمه.»[1]

أمّا الأستاذ الأكبر الذي أخذ منه أبو حيّان النحو والكلام وغيرها من أصناف العلوم والمعارف ، « فهو الشيخ "أبو سعيد السيرافي " (274ه _ 367ه) الذي كان من كبار النحاة المتكلمين المعتزلة في القرن الرابع الهجري ، بالإضافة أنّه تلقى أسرار التصوف في سن مبكّرة على يد أستاذه أبي سعيد فصار من ذلك الحين شيخا من مشايخ الصوفية ، وقد وصفه لنا أبو حيّان بأنّه شيخ الشيوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللّغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة (.....)»[2]

وقد سجلّ التوحيدي المناظرة الكبرى بين السيرافي وبين بن يونس في المنطق اليوناني عام 320ه في كتابه الإمتاع والمؤانسة وذلك لأن متى يقول : « لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجّة من الشبهة والشك من اليقين إلّا بما حويناه من المنطق ، ومكّناه من القيام به واستفدنا من واضعه على كل مراتبه وحدوده »[3] ، أمّا أبو سعيد فيرى أنّ « صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل » ، « وهذه المناظرة تظهر قدرة السيرافي في النحو كما يظهر تمكن متى من المنطق أيضا ، وقد تعلق به وكان وفيّا له ، وقد تحدّث التوحيدي عنه كثيرا وروى عنه ، ويذكر آراءه ومذهبه ، وقد وجد عنده ما يتمم علومه خاصة إلمامه بأصول النحو والكلام والفقه والحديث كان متمما لعلوم الأوائل وفلسفة اليونان »[4]

وقد تتلمذ التوحيدي على يد أستاذ آخر هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرمّاني، وهو عالم آخر موسوعي الثقافة ألمّ بالعديد من علوم عصره ونبغ في النحو واللّغة والكلام والعروض والمنطق ، بل أفرد صناعته ، وأظهر بداعته ، وقد عمل في القرآن كتابا نفيسا هذا مع

---

[1] _ أبو حيّان التووحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ص 29
[2] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. إبراهيم زكريا ، ص 27 _ 33
[3] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. أحمد عبد الهادي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1997م ، د.ط ، ص 40
[4] _ المرجع نفسه ص 41

الدّين والعقل الرزين ، « وكان الرمّاني يمزح كلامه بالمنطق وقد عابه الفارسي وأبو الحسن البديهي الشاعر ، لكن التوحيدي الذي كان يجل أستاذه دافع عنه من خصومه وشهد له بالمكانة والتمكن من علومه. والأستاذ الآخر هو القاضي أبو حامد بن بشر البصري المروروذي كان عالما بفنون العلوم الدينية والأدبية »[1] قال عنه التوحيدي : « كان بحرا يتدفق حفظا للسير وقيّاما بالأخبار واستنباطا للمعاني وثباتا على الجدل وصبرا في الخصام »[2] ، ويرى التوحيدي أنّه أنبل من رأى في حياته « هو إمام الأئمة الفضلاء الذين يعتدّ بهم في أمر الدّين ويرجع إليهم في أصول الشريعة وفروعها »[3] ، وقد تلقّى أبي حيّان الفقه الشافعي على يد أستاذه أبي حامد كما أخذ عنه الكثير من المعارف في مختلف ألوان الفنون والأدب وهناك أساتذة آخرون تتلمذ التوحيدي على أيديهم منهم جعفر بن محمد بن نصير الخلدي تلميذ الجنيد المتوفي سنة 347ه أحد كبار أعلام التصوف في ذلك الوقت[4]

لقد كان التوحيدي يطمح إلى أن يجد في الفلسفة ما يعزيه عن خيبة أمله وإلى أن يعثر عن الأسئلة الكثيرة التي كانت تدور في ذهنه ولا سيما حول العلم والمال وأنّهما لا يجتمعان فقد اتجه إلى التصوف[5] ، حيث تأثر التوحيدي بالصوفية وصحبهم ، فنشأته على التصوف « تشبه أن تكون نشأة الأستاذ على دين لا يستطيع فراقه »[6]. بالإضافة إلى أستاذه أبي الحسن العامري حيث خطر مجلسه التوحيدي ودرس عليه ما علقه وسمعه وأبي عبد الله المرزباني ومحمد ابن عمران وصديقه أبي علي بن يعقوب (مسكويه)[7]

إنّ النظرة السريعة على أساتذة أبي حيّان ترينا أسباب نبوغه وتبحره في شتّى ألوان المعرفة حتّى غدا موسوعيا واسع الأفق ، خصب الخيال ، لذا كان من الطبيعي أن تكثر مؤلفاته وتتنوع موضوعاتها.

---

[1] _ الله والإنسان في فلسفة التوحيدي ، د. الملطاوي حسن كمال الدّين ، مكتبة مدبولي القاهرة 1989م ، د.ط ، ص 54 _ 55

[2] _ الإمتاع والمؤانسة ،د. أبو حيّان التوحيدي ، موقع للنشر ، الجزائر 1989م ، ج 1 ، د.ط ، ص 90

[3] _ الله والإنسان في فلسفة التوحيدي ، د. الملطاوي حسن كمال الدّين ، ص 58 _ 59

[4] _ تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة 1980م ، د.ط ، ص 454

[5] _ نظرية الأخلاق والتصوف عند أبي حيّان التوحيدي ، د. وسيم إبراهيم ، ص 41

[6] _ الله والإنسان في فلسفة التوحيدي ، د. الملطاوي ، ص 58 _ 59.

[7] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. الصبّاح محمد علي ، ص 26.

فكره وعقيدته:

يعتبر أبو حيّان واحد من ألمع مفكري العربية وأدبائها ، « وهو أعظم مفكر إسلامي استطاع في القرن الرّابع الهجري أن يحيل التراث الفلسفي إلى ثقافة حيّة نامية متطورة ، واستطاع أن ينشر الوعي الفلسفي بين الخاصة وجمهرة العامّة على السواء.»[1] فقد أطلق عليه ابن خلكان لقب فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ذلك أنّ كتبه تجمع إلى عمق الفكرة وأناقة العبارة ورشاقة الأسلوب حتّى لقّبه بعض المؤرخين بالجاحظ.[2] فإنّ الدارس لشخصية التوحيدي يدرك أنّ الرجل هيّأته أمورا ثلاثة : ذكاء حاد ، ثقافة موسوعية ، ، تجربة في الحياة العريضة ولهذا فثقافة مستمدة من هذا القرن وكأنّه مكتبة جامعة لأكثر هذه الثقافة فهو عالم واسع المعرفة ، خبير باللّغة والنحو والأدب والفلسفة.

وربّما لم يند عنه إلا الطب والكيمياء والرياضة ، يذكر عنه ياقوت الحموي « أنّ التوحيدي شيخ في الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء.»[3] فطبعت شخصيته بطابع الإستجداء ، حتّى عاش عمره كلّه وهو يرى أنّ كل مشكلته الأولى هي « المال الذي كان يعوزه بل كان تشاؤم التوحيدي وليد المزاج والتجارب»[4] ، والتّنوع الثقافي أعطاه الحق في أن يقرن نفسه بالجاحظ أستاذ علماء الكلام في الأدب في القرن الثالث وأبو حيّان بحق أستاذ الفلاسفة في القرن الرابع الهجري.

« لقد أثار الدهشة في أذهان النّاس لطريقته المبتكرة الفلسفية الطريقة بعرضه جميع هذه القضايا الفكرية لاسيما التفكير في وحدانية الله وقصة الوجود.»[5] وقد شهد لأبي حيّان بهذه القدرة الفائقة ، بل هذه الموسوعية النادرة بل هذه الأفكار الرائدة كثير من النّقاد ومؤرخي الأدب وفلاسفة الشرق والغرب قال خيري شبلي : الدكتور زكريا ابراهيم ممّن فتن بهذا الرجل فقال عنه

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. أحمد عبد الهادي ، ص 98.
[2] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح الأعلام من الأدباء والشعراء ، ص 49.
[3] _ معجم الأدباء ، د. ياقوت الحموي ص 380.
[4] ___ أبو حيّان التوحيدي في كتاب المقابسات ، د. عبد الأمير الأعسم دار الأندلس بيروت ، ط2 ، ص 380.
[5] _ مقدمة الهوامل والشوامل لأبي حيّان التوحيدي ومسكويه ، د. أحمد أمين ، الهيئة العامّة بقصور الثقافة القاهرة ، د.ط ، د.ت ، ص 16.

: « أنّه رجل قد شهد له جميع الدارسين شرق وغرب بأنّه مفكر موسوعي له إسهامات بارزة في كل فروع المعرفة والعلوم السائدة في عصره.»[1] وكل هذه المعارف أدّت إلى أن يكون أبا حيّان خصب الفكر ثريّ العطاء متبحّرا بعمق في العديد من ألوان المعرفة ، ألّف أكثر من عشرين كتابا من عيون الفكر العربي وآدابه ولكن حين ضاقت به أسباب الرزق حقد على النّاس جميعا لأنّههم جحدوا علمه وأدبه ، وتبلور حقده عليه في إحراق كتبه حتّى يحرم النّاس الإنتفاع بها و لم يسلّم منها إلا ماكان من نسخ في أيدي النّاس ، وهو يعبر عن ذلك بقوله :« إنّي جمعتها أكثرها للنّاس لطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجان عندهم فحرمت ذلك كلّه (.....) ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامّة وإلى بيع الدّين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق وإلى ما لا يحسن باكر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبة الألم.» ولقد حيّر أبو حيّان المؤرخين فيما يتعلق بعقيدته فبينما يخلع ياقوت الحموي عليه لقب المتصوف وفيلسوف الأدباء يتّهمه الجوزي بالزندقة ويجسم من خطره [2] فيجعله أخطر الزنادقة جميعا ، حيث يقول : « زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندي ، والتوحيدي والمعرّي وشرهم التوحيدي لأنّهما صرحا و لم يصرح.»[3]

معالم شخصيته:

« عاش أبو حيّان في عصر يفور بثورات داخلية لاتنقطع ويموج بحروب على الدولة تتوالى وبحروب بين الدويلات الإسلامية لا تهدأ أو يغلى بالفتن بين السنية والشيعة وبين الحنابلة وغيرهم »[4] وممّا نجده حول شخصية أبي حيّان ونفسيته ومسلكه الاجتماعي هو فقده القدرة على ضبط نفسه لذلك كان « متهوّرا سريع الغضب عاجزا عن التمييز بين ما ينبغي أن يقال وما لا ينبغي ، مرهف الأعصاب ، يثور لأدنى الأسباب ويتمرد لأتفه مبرّر وكلّ هذا يفسّر لنا فشله في الظفر بمحبة الوزراء وعطفهم ورعايتهم ويفسّر لنا تشاؤمه وشكايته وكراهيته للحياة والأحياء كما كان أبو الوفاء المهندس يتّهمه بالعقوق ونكران الجميل ومخالطة الأردياء الأشقياء ويصمه بالجهل

[1] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. أحمد عبد الهادي ، ص 98.
[2] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، ص 49.
[3] _ المرجع نفسه ص 50.
[4] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم للطباعة والنشر القاهرة ، د.ط ، ص 120.

والغفلة والضعف وقلة المروءة حتّى أنّه لم يعد يطمئن إليه أو يثق به كل الثقة فالتوحيدي من خلال ما نعته به أقرب أصدقائه شخصية تكاد فريدة من نوعها بما تحمله من تناقضات و ازدواجية وقلق.»[1]

آثاره:

للتوحيدي إنتاج أدبي وفكري ضخم ، كان ثمرة لما تلّقاه من اشعاعات العلوم والفنون والآداب ، إلّا أنّه لم يبق من ذلك إلّا الترر القليل[2] ومهما يكن فإنّ ما تبقّى من آثار التوحيدي جدير بأن يدعونا إلى الإعتراف بعلو المكانة الأدبية والفكرية التي يستحق التوحيدي نيلها وهذه جملة الكتب والرسائل التي سلمت من الضياع.

1_ الإمتاع والمؤانسة: يعتبر من أهم كتب التوحيدي ، يقع في ثلاثة أجزاء تولى تحقيقه أحمد أمين ، وأحمد الزين ، ويحوي الكتاب أربعا وأربعين ليلة ضمّت شتّى القضايا الفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية وقد تمّ تأليف الكتاب على نحو أنّ الوزير بن سعدان يسأل وأبو حيّان التوحيدي يجيب.[3]

2_ المقابسات: مجموعة من المحاضرات المتقطعة لجلسات كان يعقدها جماعة من العلماء على رأسهم يحي بن عدي ، وأبو سليمان المنطقي ، وغيرهم من مشاهير العلم والفكر وهو يحوي مائة وستة مقابسة يغلب عليها الطابع الفلسفي كالحديث عن الطبيعة والصناعة والنظم والنّثر والألفاظ والمعاني.[4]

3_ البصائر والذخائر: قام بنشره الدكتور إبراهيم الكيلاني والكتاب يقع في ستة أجزاء وهو عبارة عن مجموعة من الآيات والأحاديث النّبوية وأقوال النساك والشعراء.[5]

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، إعداد محمد علي الصبّاح ، ص 32.
[2] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ، ص 37.
[3] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، إعداد محمد علي الصبّاح ، ص 100.
[4] _ المرجع نفسه ص 119.
[5] _ المرجع نفسه ص90.

4_ الصداقة والصديق: نسخ وبيّض عام 400ه وكان قد وضع بعد عودة التوحيدي من عند الصّاحب بن عبّاد عام 371ه فقد جمع فيه (مؤلفه) ماقيل من شعر أو نثر في الصداقة والصديق وما ترجم إلى العربية في هذا الموضوع من حكم يونانية أو فارسية وكذلك مختارات من أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلم وآل بيته وقد عالج فيه موضوع الصداقة معالجة أدبية ، نفسية ، فلسفية ظهرت فيها مقدرته على التغلغل في نفس الإنسانية وتعرفه الواسع والدقيق على نوازع الإنسان.[1] نسج هذا الكتاب على نفس طريقة البصائر والذخائر ويعتبر من أنضج الثمار التي أبرزتها شجرة التوحيدي بحيث يرجع الفضل الكبير في تصويره الجانب الوجداني من التوحيدي.

5_ مسائل الهوامل والشوامل: الذي كتب حوالي 375ه بعد مقتل الوزير ابن سعدان فإنّه يشمل أسئلة فلسفية وكلامية ، وطبيعية ولغوية يوجّهها التوحيدي إلى صديقه مسكويه أن يردّ عليها بأجوبة يغلب عليها الطابع الفلسفي.[2]

6_ الإشارات الإلاهية: كتب في حدود سنة 393ه مادة صوفية يتوجه فيه التوحيدي بأدعيته ومناجاته الحارّة إلى خالقه بعد اليأس من الدنيا ومحاولة نبذها والفناء في الله جلّ وعلا وإذا كانت تطلعات الحسد ومطامح الإنسان قد اختفت في هذا الكتاب فإنّ تطلعات الروح التي نستعر فيها مشاعر الحرمان فيه إلى حياة روحية.[3]

7_ مثالب الوزيرين: الذي كان في المسوّدة قبل عام 371ه فهو تحفة أدبية ثمينة أودعها التوحيدي على تعبيره نشره إبراهيم الكيلاني وهو بمثابة الأثر الأشدّ هجاءا للوزيرين الصاحب بن عبّاد وابن العميد.[4]

8 _ رسائل أبي حيّان: مجموعة من الرسائل التي جمعها الدكتور إبراهيم الكيلاني في كتاب واحد سمّاه رسائل أبي حيّان التوحيدي حيث ذكر فيه : رسالة السقيفة – رسالة علم الكتابة –

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم ، د. محمود إبراهيم ، دار المتحدة للنشر ، ص 33.
[2] _ المرجع نفسه ص 32.
[3] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، ص 41.
[4] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، إعداد محمد علي الصبّاح ، ص 90.

رسالة في علم الحياة – رسالة في العلوم – رسالة إلى أبي الفتح بن العميد – رسالة إلى أبي الوفاء المهندس البورجاني – رسالة عبد الله العارض – رسالة إلى الوزير أبي عبد الله وزير صمصام الدولة البويهي – رسالة إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد وهناك بعض الرسائل ذكرها ياقوت الحموي[1] نذكر منها : رسالة الحنين إلى الأوطان – الرسالة البغدادية – رسالة في أخبار الصوفية . أمّا ما تبّقى عن كتبه فكلّها مفقودة لا يعرف منها إلّا العنوان.

[1]_ معجم الأدباء ،د. ياقوت الحموي ، ص 1925.

المبحث الثّاني: أبو حيّان التوحيدي الأديب

لأبي حيّان التوحيدي مكانة أدبية بارزة جعلته أديبا مميّزا بين أعلام عصره ، وإذا كان التوحيدي قد نال أثناء حياته كل أنواع العذاب والألم النّفسي والعضوي فإنّه مع ذلك قد استطاع أن يرغم التاريخ ليدّون اسمه ضمن صفحاته ، وأرغم الكتّاب على تصفح آثاره ، فالتوحيدي لم يمر على باب من أبواب المعرفة إلا وطرقه فكان بذلك موسوعة ثقافية ومعرفية متعددة حتّى صار ملجأ لذوي الأبحاث العلمية والأدبية والفكرية ، وهذا لا يعني أنّ التوحيدي كان مختصا في شتّى أنواع العلوم والمعارف لأنّه « أديب لغوي بالدرجة الأولى »[1] ، لكن الأمر كما يقول ابن قتيبة : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنّا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع للعلوم.»[2] فقد كتب التوحيدي في الأدب وكان ثمرة عمله دستوره الكتابي المميّز الذي دعا فيه الكتّاب والأدباء إلى العودة نحو المنهج الأدبي السليم ، المبني على الذوق والسليقة الأدبية القوية.

« وهو يعدّ من أكبر أدباء العراق في هذا العصر القرن الرابع الهجري »[3]، فكان له أسلوب متفرد أصبح ظاهرة مستقلة انضمت إلى أسلوب أمثاله من بعض أدباء زمانه »[4] ، حيث « سلك مسلك الثقافة الرصينة العميقة والتجأ إلى الفنّ في الكلام ، معبّرا عن أصدق ما تختلج به نفسه ويخلق خياله.»[5] ، « فامتاز أدبه بتنوع موضوعاته إذ أنّه ليس لفظيا ، قعقعة ولا طحن بل هو أدب يحمل زاد كبير من المعاني »[6] ، كما تطرق إلى شتّى أنواع العلوم والمعارف حتّى البيولوجيا فهو يقول عن الدماغ مثلا : « فأمّا الدماغ فينقسم إلى ثلاثة أقسام يحزّ بينها ثلاثة أقسام ، أغشية ، أحدها في مقدم الرأس موضع التخيل والثّاني في وسط الرأس موضع العقل والفكر والتمييز ، والثالث في مؤخر الرأس موضع الحفظ والذكر القبول ، وكل واحد ممّا ذكرنا

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم ، د. محمود إبراهيم ، الدار المتحدة للنشر بيروت. 1985م ، ص 107.

[2] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، دار المعارف القاهرة ، ط4 ، ص 77.

[3] _ تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة 1980م ، د.ط ، ص 461.

[4] _ الفكر الجمالي عند التوحيدي ، د. بهنسي عفيف ، المجلس الأعلى للثقافة ، دمشق 1999م ، د.ط ، ص41.

[5] _ المرجع نفسه ص 41.

[6] _ تاريخ الأدب العربي ، د. شوقي ضيف ، ص 461.

يخدم الآخر وإن ضعف أحدهما ضعف الآخر ، وباعتدالهنّ وسلامتهنّ قوام البدن والنّفس.»[1]

لقد خرج أبو حيّان عن الموضوعات الغالبة في عصره ، من رسائل إخوانية وديوانية ومقامات وكتب ، وعهود، ولهذا قدّره الكثير من الدارسين المحدثين مثل : « السندوبي ومحمد كرد علي وزكي مبارك ، وعبد الرزاق محي الدين »[2]، إذ يرى محمد كرد في تصوير أبي حيّان الإبداعي : « ما تقف عنده العقول حائرة إذ أصبحت اللّغة في يده مرنة مرونة العجين في يد المصور الحاذق»[3]، ويحاول عبد الرزاق محي الدين دراسة أبي حيّان من النّاحية الفنيّة في كتابه الذي صدر عام 1949م وفيه يقول :« مادة فن الرّجل ينتزعها ، من جماع ما يهجس لنفسه أو يلوح لعينيه ، أو يمر على سمعه فقد تكون هاجسا شعوريا ، وقد يكون مدركا عقليا ، كما قد تكون منظرا شهده أو قصة تمت إليه أو رأيا قال به غيره ، ولكن مادة هذا الفن لابد لها في رأيه أن تكون من تلك المعادن الكريمة والجواهر النفيسة التي تثبت للصقل والصهر ولا يزيدها ذلك إلّا نظارو وطراوة وبريقا ورنينا ، فيناول أنذاك المادة الغفل بيد الفنّان الماهر والصائغ الصناع ، فلا يفتأ يدخل عليها من فنه ، ويشيع فيها من روحه ويبعث فيها الحياة والقوة والجمال.»[4] وقدّره المستشرق آدم متز في قوله : « كان أبو حيّان التوحيدي أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق »[5] ويقول أيضا : «وأوّل ما نلاحظه أنّه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادرا عليه ، غير أنّنا نكاد لا نلاحظ في أسلوبه ذلك التكلف الذي نجده عند غيره من الأدباء و لم يكتب في النّثر العربي بعد أبي حيّان ممّا هو أسهل وأقوى وأشد تعبيرا من شخصية صاحبه ما كتب أبو حيّان.»[6] إذا كان أبو حيّان أعظم كتّاب النثر قاطبة كما يقول "متز" « فهو كاتب ذو قضية يؤمن بها ويبشر بها بأسلوب بليغ هو أعذب من الشعر صياغة ، وأعمق من الفلسفة تحليلا ، وأدق من القانون إحكاما »[7]، حيث قلّ أن تجد بين أدباء العربية من كان يعرف حدود طريقته الفنّية كأبي حيّان لأنّه « كان فنّانا ناقدا

---

[1] _ الإمتاع والمؤانسة ، د. أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت، 1953م ، ص 42.

[2] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم للطباعة والنشر القاهرة 1957م ، ج2 ، د.ط ، ص 105.

[3] _ الفكر الجمالي عند التوحيدي ، د. بهنسي عفيف ، ص 41.

[4] _ أبو حيّان التوحيدي سيرته وآثاره مكتبة الخالجي القاهرة 1949م ، د.ط ص 345.

[5] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ص 106.

[6] _ المرجع نفسه ص 106.

[7] _ الفكر الجمالي عند التوحيدي ، د. بهنسي عفيف ، ص 135.

عارفا بالأصول التي تقوم عليها طريقته ، مؤمنا بفنّه ، واعيا بمقدار الجهد الذي يبذله المرء ، حتّى يصبح كاتبا متميز الأسلوب.»[1]

كان أبو حيّان على دراية دقيقة بفن الكتابة ومتطلباتها فهو يصف لنا الكلام الرقيق قائلا « فإنّ الكلام صلف تياه ، لا يستجيب لكل إنسان ولا يصحب كل لسان وخطره كثير ومعاطيه مغرور ، وله إرن كإرن المهر ، وإباء كأباء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يتسهل مرة ويعز مررا ، وبذل طورا ويعز أطوارا.»[2] وقد يسر عليه هذه البراعة ، علمه باللّغة ومدلولاتها ومناسباتها لمفرداتها وبصره بمعانيها ، فهو يضع أمام نفسه شروط دقيقة إذا استوفاها حقق أسلوبا بليغا حكيما فإذا به يقول في كاب البصائر والذخائر :« فمن أوائل تلك العناية جمع بدد الكلام ، ثمّ الصبر على دراسة محاسنه ، ثمّ الرياضة بتأليف ما شاكله أو وقع قريبا إليه ، وتتريل ذلك على شرح الحال : أن لايقتصر على معرفة التأليف دون معرفة حسن التأليف ، ثمّ لايقف مع اللّفظ وإن كان نازعا شقيا حتى يفلي المعنى فليا ، ويتصفح المغزى تصفحا ، ويقضي من حقه ما يلزم في حكم العقل ، ليبرأ من عارض سقم ، ويسلم من ظاهر استحالة ، ويعمد حقيقته أوّلا ثمّ يؤسسه ثانيا ، ليترقرق عليه ماء الصدق ويبدو منه لألاء الحقيقة ولن يتمّ ذلك حتّى يجنبه غريب اللّفظ ووحشيه ومستكرهه.»[3]

وليست هذه وصية نظرية ، لأنّ المدقق في أصولها وأركانها « يلمح فيها طريقة أبي حيّان نفسه ، القائمة على الإحتفال والتأني والصبر على المعنى الدقيق ، العناية بأصول وأركان البلاغة وتقديمها محكمة عميق الدراية ، التأكيد على مطابقة الصورة للمضمون ، وعدم الإنسياق وراء اللّفظة لأنّها جميلة مع تجنب واضح للألفاظ الوحشية والمستكرهة.»[4] وكل من يدرس أبا حيّان في طريقه الفنيّة يراه مجتذيا طريقة أستاذه الجاحظ ، معلنا مدى إعجابه به إذ يقول :« ومتى رأيت ديباجة كلامه ، رأيت حوى ، كثير الوشى ، قليل الصنعة ، بعيد التكلف ، حلو الحلي ، مليح

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إحسان عبّاس ، بيروت للطباعة والنشر بيروت 1956م ، د.ط ، ص 135.
[2] _ أبو حيّان التوحيدي "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة" د. أحمد عبد الهادي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة 1997م ،د.ط ، ص 109.
[3] _ أبو حيّان الوحيدي ، د. إحسان عبّاس ، ص 47.
[4] _ الفكر الجمالي عند التوحيدي ، د. بهنسي عفيف ، ص 137.

العطل ، له سلالة كسلالة الماء ، ورقة كرقة الهواء ، وحلاوة النّاطل وعزة كعزة كليب وائل ، فسبحان من سخر له البيان وعلمه.»[1]

« وقد أصبحت هذه الحقيقة إحدى القضايا المسلمة التي لا تحتاج برهانا جديدا ولكنّها يجب ألا تحجب عن أنظارنا تفرد أبي حيّن في أسلوبه »[2]، « فأسلوبه يتراوح بين الرقة والجفاف تبعا للموضوع الذي يود معالجته ، حيث يبدو رقيقا منسابا عند معالجته مواضيع إنسانية ، ورصينا جاف في المسائل التي يغلب عليها الطابع الفلسفي والمنطقي »[3]، « ومستخدما أسلوب الإزدواج ، وقد يتخلله في الحين البعيد بعد الحين السجع ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فيبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي وهو يتسع اتساعا واضحا في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي. »[4]، إلّا أنّ موضوعاته لم تكن من نبات الحياة التي يهواها النّاس ، بل كان ذا منهج منطقي ، موسوعي فلسفي ، وهذا ما كان يبعده عن طبقات المجتمع إلّا النخبة من المثقفين »[5]، إلّا أنّ أبا حيّان قد التزم في معظمها أسلوبا واحدا « وهو أسلوب المحاورة والمسامرة ، فجاءت كتبه بعيدة عن التكلف والتعسف بريئة من اللبس والغموض»[6] فامتازت كتاباته بجملة من الخصائص التالية:

ـ يمتاز أبو حيّان بأنّه في أكثر ما يكتبه بأسلوبه لا يمد قلمه من عقله وحده ، ولا يعتمد على جرس الكلمة ووقع الجملة فحسب ، وإنّما يمد قلمه من قلبه ، ويعتمد على حرارة عاطفته وقوتها وصدقها فهو كاتب فكرة يعبر عنها بقوة وهو كاتب عاطفة ، حيث يصورها بحرارة وصدق فيمزج عاطفته بفكرته ، لأنّه يدين بما يقول ويدافع عن رأي أو مذهب ، ومن هنا كانت الحيوية والقوة والحرارة غالبة في كتاباته ، وفيما نقله عن غيره أو رواه عنه بعد أن عمل فيه قلمه وهذبه بفنه ، وهذه السمة تتضح أكثر في شكواه من حظه وتصويره لبؤسه مثل قوله: « وقد

---

[1] _ المرجع السابق ص 48.
[2] _ أبو حيّان الوحيدي ، د. إحسان عبّاس ، ص 137.
[3] _ أبو حيّان التوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " د. محمد علي الصبّاح ، ص 50.
[4] _ تاريخ الأدب العربي ، د. شوقي ضيف ، ص 462.
[5] _ أبو حيّان الوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. محمد علي الصبّاح ، ص51.
[6] _ أبو حيّان التوحيدي "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " د، إبراهيم زكريا ، ص 102.

أصبحنا في هذه الدار وكأنّما هي قاع أملس ، أو أثر أخرس ، لم يبق من يرضى هديه أو يخطب عرفه أو يقتضي جوده ، أو يقتدح زنده.»[1]

ـ لقد سجل أبو حيّان ثقافة معاصريه ، ومن قبلهم ، بكثرة ماروى عنهم ، ونقل من كبهم وسمع من أفواههم ، وسجل ماكان يسمعه في مجالس العلماء والأدباء من محاورة ومجادلة ومناظرة ، فإنّه هو الوحيد الذي دوّن المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس المفاظلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني ، ومن ذلك أن روى عن أبي الحسن القطان تعريفات أصولية ثمّ علق عليه بقوله :« ليس ماقال مقرونا بالسلامة ، لكنّي رويت ما علقته ولم أزين لفظه ولا نمقت عبارته.»[2]

ـ« امتاز أبو حيّان بثقافته الواسعة ، وجنوحه إلى تزويد أدبه بألوان شتّى من المعرفة والعلوم ، فقيها أفانين من اللّغة والنحو والصرف والفلسفة والتصوف والفقه وعلم النّفس والحيوان والنّبات ، ففي كتابه الإمتاع والمؤانسة يروي مادار فيها من أحاديث تتناول بالبحث مختلف القضايا العلمية والفنّية من أدب ولغة وفقه وفلسفة وعلم الإجتماع وسياسة وعلوم دقيقة.»[3]

ـ تنبئ قراءة كتبه عن قدرة قادرة على صياغة الأفكار والترجمة عمّا بالنّفس من مشاعر وآراء ، فإذا عبّر بأسلوبه عمّا يجيش بنفسه ، أو عبر بأسلوبه عمّا يحكيه عن غيره حادثا وقع أو قصة كانت أو صور مناقشة دارت أو مناظرة حدثت ، جاد في وصف ما رأى ، وأبدع في التعبير عمّا حدث ، فإذا هو قدير على نقل الخواطر كأنّما هي خواطره ، وقد كان هو يعرف ذلك لهذا فإنّنا نصدقه في قوله : « قال لي بعض من أثق بخلته : ينبغي أن تأتي لعلمي ما أهلك فلان له وشرفك به وتحق إلى مراده ، وليس في فرش الفضائل هؤلاء المشايخ ونقل كلامهم عليك مؤونة ولا مشقة فادحة ولا كلفة شديدة وإن لم تبلغ فيها ذروة الخاصّة منها إلى حضيض العامّة بل إن لم

---

[1] ـ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ص 107.
[2] ـ المرجع نفسه ص 108.
[3] ـ المرجع نفسه ص 111.

يزد ما تحكيه عنهم رونق اللّفظ وبهاء الوصف وتقريب بعد وإيضاح شكل لم تبحثه حظه من الحقيقة التي اليها انتهى المطالبة.»[1]

ـ كما اتخذ أبو حيّان النثر سلاحا للهجاء ، بدلا من الشعر وصور به غيظه وسخطه على من هجاهم ، كما نجد في هجائه لابن عبّاد وثلبه لبعض معاصريه من علماء وشعراء وكتّاب وحاشية ، من ذلك وصف ابن عبّاد يقول : تراه عند هذا لهدر وأشباهه يتلوى ويبتسم ويطير فرحا ويتقسم ويقول : نمرة أسبق لهم وقصرنا أن نلحقهم أو نقتفوا أثرهم ونشق غبارهم ، ونرد غمارهم وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحايل ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ويرد كالأخذ ويؤخذ كالمتمنع ويغضب في عرض الرضا ، ويرضى في لبوس الغضب ويتهالك ويتمالك ويتقابل ويتمايل ويحاكي المومسات ويخرج في أصحاب السماجات.»[2]

ـ كان أبو حيّان ضليعا يتطلب في التعبير الفنّي ، متّسما الدقة ولهذا نجده قد برع في استعمال الكلمات المترادفة ، لأنّه صاحب حسن لغوي ، دقيق في وضعها المواضع الملائمة لها كقوله : اللّهم فلا مخيب رجاؤه منوطا بك ولا تصفر كفن هي ممدودة إليك ولا تذل نفسا هي عزيزة بمعرفتك ولا تسلب عقلا هو متضيأ بنور هدايتك ولا تقذ عينا فتحتها بنعمتها ولا تخرس لسانا عودته الثناء عليك. »[3]

ـ يغلب عليه إيثار الإطناب ، سواء أكان بالكلمات المترادفة التي تؤدي معنى واحد أو معاني جد متقاربة أم بتكرار المعنى بعبارات متغايرة كقوله :« ومتى أنصفتك نفسك ، وهدنك الرأي ، وملكتك الزمام ، وجذبتك الهوى وحملتك على النهج ، وحمتك دواعي العصبية ، عملت علما لا يخالطه شك ، وتيقنت يقينا لا يطوره ريب.....»[4]

ـ يكثر من الفصل بين أجزاء الجملة الواحدة بجمل معترضة ، للدعاء ولغير الدعاء بعضها قصير وبعضها طويل ، فمن الجمل القصار الدعائية قول : فقال – أدام الله دولته ، وبسط لديه

---

[1] ـ المرجع السابق ص 111
[2] ـ م.ن ، ص 112.
[3] ـ المرجع السابق ص 114.
[4] ـ المرجع نفسه ص 116.

نعمته – قدم هذا الفن على غيره. ومن الجمل المعترضة الطوال قوله :« لمّا مات الراغي – وكان قدوة في النحو، وعلما في الأدب كبيرا مع حداثة سنه ، ورقة حاله ، وإن قلت : إنّي ما رأيت في الأحداث مثله كان كذلك- استرجع أبو سعيد السيرافي واستنبر »[1]

ـ« أكثر من الجمل الدّعائية ، خاصة فيما بعث به إلى الوزراء ، أو راسلهم به ، وفي ذكره للّذين يحبهم كأبي سعيد السيرافي.»[2]

ـ لقد تفرّد أبو حيّان في كتاباته واصف أدباء وفلاسفة عصره وصفا دقيقا ومستوعبا مثل وصفة لأبي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرّماني والصاحب بن عبّاد فيقول : « أمّا مسكويه فلطيف اللّفظ رطب الأطراف ، رقيق الحواشي ، سهال المأخذ ، قليل السبك.»[3]

ـ « برع أبو حيّان في تنغيم الوقع الموسيقي للجهل بتقسيمها إلى فقرات فصارت متناسبة الطول ، يكثر فيها الإزدواج ليكون أثرها على السمع وفي النّفس أشبه بالشعر »[4] مثل قوله : حفظك الله أيّها الشيخ – حفظ الله روحك وكل السلامة لك – أدام الله توفيقك في كل قول وفعل – آدام الله تأييدك.

ـ يعمد إلى تنويع حروف الجر المختلفة وأكثر ما يكون ذلك في الأدعية ، حتّى يبدو كأنّما طبيعة العبارة لم تأت على ذلك الوجه ، فمن ذلك في أوّل الجملة : " إليك " سافرنا فكن عنمتنا ، و" عليك " توكلنا فكن عصمتنا و" لك " ذلك فعززنا ، و" بك" وجدنا فجد علينا ، و"إليك" اشتقنا فأوصلنا[5]

ـ قد يجمع بين الإستفهام و " التضاد " في عبارة واحدة كما في قوله :

« أما ترى صنيعتي في تحفظي.

---

[1] _ المرجع نفسه ص 117.
[2] _ المرجع نفسه ص 117.
[3] _ أبو حيّان لتوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، د. أحمد عبد الهادي ، ص 213.
[4] _ المرجع نفسه ص 215.
[5] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. إحسان عبّاس ، ص 151 – 152.

أما ترى رقدتي في تيقظي.

أما ترى عضتي في إساغتي. »

ـ ومن التفنّن الأسلوبي ما يمكن أن نسمّيه " التولد " فهو يدع العبارة تسلسل تسلسلا منظّ ما مولدا مايلي مما سبق كما قوله : « ادن حتّى تصغي – أصغ حتى تسمع – اسمع حتّى تفهم – افهم حتّى تعقل – واعقل حتّى تشرف – واشرف حتّى تبقى.....»[1]

ـ لقد أكثر أبو حيّان من إيراد الشعر والحكم والأمثال في غضون كتاباته ، ويذكره منفصلا مستقلا، لأنّه له صلة بالموضوع الذي يعرض له ، ومن ذلك في كتابه الصداقة والصديق يقول :

« إذ أنت لم تتصف أخاك وجدته على طرف الهجران أن كان يعقـــل

ويركب حد السيف من أن تضميه إذ لم يكن عن جانب السيف مرحل »[2]

ـ « يهتم أبو حيّان اهتماما بالغا بتحديد معاني الألفاظ ولكنّه عندما يفعل ذلك لا يقصد التعريف اللّغوي أو القاموس فقط ، لكنّه يريد أيضا أن يوضح مفهوم الحد ، وهو إذ يذكر الحد يقول إنّما أعني به كذا وكذا ، فمثلا بإثارته لهذا الإشكال حول موضوع الحياء بوصفه شعبة من شعب الإيمان يطرح للنقاش أيضا ضمنيا عناصر الإيمان ، وأحيانا أخرى يلجأ إلى تعريف اللّفظ عن طريق تعريف المناقض وقصده في ذلك كلّه توضيح الفكر وجلاء الغامض.»[3]

ـ فقد صنع بالمناجاة فنّا ذاتيا أصيلا ، وليست أدعية الصوفية إلّا شيئا ساذجا إلى جانب أدعيته ، واقتبس الكثير من فواتح كتاب البصائر وخواتمه ، ولكن لو اطلعنا على الإشارات الإلهية لوجدناها فنّا ممكتملا ، تفرد به التوحيدي بين أدباء العرب جميعا ، ومن ذلك في كتابه " الإشارات الإلهية " يناجي الله ويقول : « اللّهمّ أنّ نزوع عنك يجهلنا الذي ابتلينا به ونريغ إليك

---

[1] _ المرجع السابق ص 153.

[2] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، ج2 ، ص 121.

[3] _ الله والإنسان في فلسفة التوحيدي ، د. الملطاوي حسن كمال الدّين ، مكتبة مدبولي القاهرة 1989م ، د.ط ، ص 94.

بعلمنا الذي كشفتنا به ونقف حيار بين أمرك الذي استصلحنا عليه ، وبين علمك الذي أدرجتنا فيه وأعجب من هذا كلّه أنّك بصرتنا فواتح الأحوال.»[1]

لقد استطاع التوحيدي بفضل ما قدمه من علم ومعرفة ، أن ينال إعجاب كثير من الكتّاب والقدماء والمحدثين ، فمنهم من اعتبره « فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة »[2] ، ومنهم من قال « أبو حيّان مفكر عملاق وكاتب قدير جمع بين نصاعة العبارة وإشراقها ، وثراء الفكرة وعمقها وقد خلّف للأجيال ثروة لا يستهان بها في شتّى المعارف »[3]، ومنهم من فضله عن الجاحظ بقوله : « هو في نظري أدب أهل زمانه كل ربّما كان آدب من شيخه الجاحظ » لأنّ « علوم زمانه التي استوعبها كانت أكثر من علوم الجاحظ »[4]، وللإشارة فإنّ « التوحيدي شديد الإعجاب بالجاحظ ويعتبره شيخه ، إلّا أنّ تأثره به لم يكن تأثرا من شأنه أن يذيب شخصية صاحبه أو يمحو خصائصه بقدر ماهو إعجاب حاول من خلال أن يحذو حذوه ، وينتهج طريقه ، تقديرا واعترافا له بالسبق.»[5] لأنّ التوحيدي قد خالف الجاحظ في كثير من الأمور ، ولسنا في هذا البحث إزاء مقارنة بين لبرجلين فكلاهما له الفضل الكبير في صنع حضارتنا الإسلامية العريقة.

وزبدة القول هذا أنّ أبا حيّان أديب القرن الرابع الهجري صاحب الإمتاع والمؤانسة، والهوامل والشوامل ، والصداقة والصديق ، ومثالب الوزيرين ، والبصائر والذخائر ، والمقابسات وغيرها ، الذي اتفق النّاس جميعا على أنّه الموسوعة العلمية والأدبية الذي نقل ثقافة القرن الرّابع الهجري.

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. الحوفي ، ص 154.
[2] _ أبو حيّان الوحيدي " فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة " ، إعداد محمد علي الصبّاح ، ص 03.
[3] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، الدار العربية 1983م ، ج1، ص 05.
[4] _ ظهر الإسلام ، د. أحمد أمين ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط3، ج2 ، ص 99.
[5] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، ص 05.

المبحث الثالث: أبو حيّان التوحيدي في الدرس اللّغوي " لغويا

صلة أبي حيّان التوحيدي باللّغة و قضاياها لم تكن صلة عابرة ، و تكن بالخافية على معاصريه و القدماء الذين اتّصلوا به وآثاره حيث قال مسكويه عنه : « أيّها الشيخ اللّغوي »[1]وقال فيه الخوانساري :«كان التوحيدي يعرف بأبي حيّان النّحوي »[2]وما أرى أنّ صفة من الصفات هي أدلّ على شخصية التوحيدي الثقافية من صفة اللّغوي. فالتوحيدي قدر درس علوم اللغة على يد أبو سعيد السيرافي حيث كان هذا الأخير أعلم النّاس بنحو البصريين وقد تصدّى لنحو سيبويه وبسّط علم النحو حتّ قال إبنه يوسف :«وضع والدي النحو في المزابل (بالإقناع)[3] ومثلما اتصل التوحيدي بالسيرافي صلة تلميذ بأستاذه استفاذ منه لغة و اهتماما بالقضايا اللّغويّة كذلك اتصل بالرمّاني و هو الذي قيل فيه: «ولم يرقد مثله علما بالنحو ،و غزارة في الكلام .و بصرا في المقالات،و إيضاحا للمشكل »[4] بالاضافة إلى ذلك مارس التوحيدي الكتابة ناسخا و مؤلفا معظم حياته ممّا أتاح له فرصة الإطلاع على المادة اللّغوية و أكسبه معرفة عميقة باللّغة و قدرة عجيبة على التصرف حيث نقل التوحيدي عن أبي سليمان السجستاني في معرض مقارنة اللّغة العربية بغيرها من اللّغات في قوله: «فعلى ما ظهر لنا و خيل إلينا ،لم نجد لغة كالعربية ،و ذلك لأنّها أوسع مناهج ،و ألطف مخارج،أعلى مدارج ،و حروفها أتم ،أسماؤها أعظم ،ومعانيها أوغل ، ومعاريضها أشمل ،و لها هذا النحو الذي حصته منها حصة المنطق من عقل ،و هذه خاصة ما حازته لغة ،على ما قرع آذاننا،وصحب أذهانا من كلام أجناس النّاس »[5].و إذا كان التوحيدي من أنصار العربية وعلومها في المفهوم الشامل،فإنّه ينتصر للنشر العربي على وجه الخصوص ،وهو النّاشر المتفنّن المجيد لذا نجده يقول و هو ينفي أن يكون لابن العميد الصّاحب ابن عبّاد مادح من الكتّاب ،ويزري بالشعر الذي قيل في مدحها :«ودع الشعر جانبا ،فإنّما ذلك عن حسب دنّي ، و مذهب زرعي ،وطمح خسيس،و مقام مذل ،وموقف مخجل ،ولكن هات رسالة محررة ، وأديبا فاضلا،و عالما مذكورا ،تجرد لنصرتهما،ودل على خفي فضلهما ، وأعجب من جلّي فعلهما....»[6]

---

[1]_ أبوحيّان التوحيدي في قضايا الإنسان و اللغة و العلوم ، د. محمود ابراهيم الدار المتحدة للنشر ، ص 71.
[2]_ المرجع نفسه ص 71.
[3]_المرجع نفسه ص 71.
[4]_المرجع نفسه ص 72.
[5]_ا لمرجع نفسه ص 72.
[6]-المرجع نفسه ص74

فإذا كان التوحيد قد هيأته ثقافته وصرفته وميوله الخاصة ، لأن يكون متمكنا من العربية محبا لها ، فإنّ ما تركه لنا من كتابات في الموضوعات المختلفة التيّ عالجها ، تثبت بالدليل الذي لا ينقض،أنّ نظره في اللغة كان عميقا نفّاذا وأنّه طوع العربية فيما كتب لأنماط مختلفة من المعرفة ،«بحيث باتت مفرداتها لا يستغني عليها معنى من المعاني المحتواة في علوم العصر ومعارفه ، وهي علوم ومعارف لم يكن التوحيدي بثقافته الموسوعة غريبا عنها ،جاملا بمصطلحاتها »[1] ولقد كان التوحيدي واحد من الكتّاب القدامى الذين تفّهموا العلاقة بين اللّفظ و المعنى ،وأدركوا الرابطة ما بين اللّغة و الفكر ،و قد عبّر عن ذلك بجلاء في فترات مختلفة من حياته ،ثمّ في ألوان مختلفة من إنتاجه، مثل كتابه "البصائر و الذخائر".ومن قضايا اللّغة التيّ تستحق الوقوف عليها في كتابات التوحيدي ،براعة الرجل الفائقة في تحيّر الأوصاف والنعوت،حتّى حين يكون موضوع النعت طريفا جديدا،يشعّ تناوله والكتابة فيه كالأقلام التي كانت تستعمل في الكتابة زمن التوحيدي والخطوط التي كانت تكتب بها. وواضح ممّا أورده التوحيدي في الخطوط ،«أنّه نظر إلى الخط العربي نظرة فنّية جمالية،فاعتبره شكلا من أشكال الزخرف الإسلامي ، وتلك نظرة ما تزال قائمة حتّى وقتنا الحاضر في أذهان الكثير من ل رجال الفن في الشرق و الغرب على السواء»[2]

ومع ولع التوحيدي بالإيقاع و التنغيم في كتاباته ، نجد أنّ حسه اللّغوي الدقيق كان يمجّ السجع الذي يتعسف فيه صاحبه الإيقاع والتنغيم بتعسف الألفاظ ، حيث أسلوب التوحيدي البنائي يرتبط ارتباطا وثيقا لشخصيته المميّزة وانفعاله الدائم وله ديناميكية لغوية يحس القارئ بحرارتها وإشراقها من أوّل مصافحة لكتابات التوحيدي وقد قالوا:«إنّ الأسلوب هو الإنسان نفسه»[3]فشاع قي أسلوبه الازدواج و التّناقض الوهمي والصراع الداخلي و كان العلّامة المضيئة في كلّ واجهاته اللّفظية وللعاطفة دور حيوي في أسلوب لأبي حيّان إذ أحال أكثر المسائل الفلسفية تعقيدا إلى مرونة وصياغة محبّبة وكان بذلك كاتبا عاطفيا على المستوى التعبيري ، والتوحيدي من

[1]-المرجع السابق ص75
[2]-المرجع نفسه ص81
[3]-المرجع نفسه ص 84

الكتّاب المعجبين بأسلوب الجاحظ. واللّفظ الأدبي عند التوحيدي مهمّة شاقّة إذ :« يسهل مرّة ويتعسر مررا وبذل طورا ويعزّ أطوارا ....»[1]

« رزق التوحيدي حاسّة فنّية ، ومن مظاهرها الآثار التي تركها في تصوير شخصيات عصر الأدبية والعلمية ، ويقوم فنّ التصوير عند التوحيدي غالبا على أسس نقدية تأثرية في الغالب وهو فنّ كثير المداخل. ويعدّ التوحيدي من المبرزين في هذا الفنّ. حيث تطرّق أبو حيّان إلى كلّ فن من فنون القول وجال جولات موفقة في مختلف الموضوعات ومنها مفردات اللّغة وما يقوم بين اللّفظ الواحد منها من فروق ودقائق وهذا بحث من أبحاثه في اللّغة : فلمّا عدّت إلى المجلس قال : ما تحفظ في تَفعال وتِفعال فقد اشتبها؟ وفرعت إلى ابن عبيد الكاتب فلم يكن عنده مقنع ، وألقيت على مسكويه فلم يكن فيها مطلع ، وهذا دليل على دثور الأدب ، وبوار العلم والإعراض عن الكدح في طلبه .....»[2]

« وهذا بحث آخر في اللّغة وعلم الصرف وجموع الألفاظ : وقال الوزير آدام الله أيّامه : سراويل يذكّر أم يؤنّث ، ويصرف أم لا؟

فكان الجواب : أنّ علي بن عيسى حدّثنا عن شيخه ابن السرّاج قال : سألت المبرّد فقلت: إذا كان الواحد في صيغة الجمع ما يصنع به في الصرف في مثل : شعره هراميل ، وهذه سراويل وما أشبهه ، فقال : ألحقه بالجمع فامنعه الصرف لأنّه مثله وشبيهه.»[3]

إنّ تنوع المصادر التي تلقّى منها التوحيدي الأدب والفكر ، كتباين أساتذته علميا وأدبيا وفكريا ، ومهنة الوراقة التي مارسها ضمن أطوار حياته ، هذا بالإضافة إلى امتلاكه للطبيعة الجيّدة القابلة للفنّ الأدبي كما يظهر ذلك في مؤلّفاته وكما سبق ذكره ، كلّ ذلك كان حافزا إلى أن يقف موقفا خاصّا من مفهوم البلاغة ، وأن يصحح المفاهيم السلبية التي أعطيت للبلاغة آنذاك «لأنّ فن البلاغة مثله في ذلك كمثل غيره من الفنون ، في عسير يحتاج إلى جهد وتعلم وممارسة

[1] _ الأديب والمفكر أبو حيّان التوحيدي ، تأليف علي دب، الدار العربية للكتاب ، ط2 ، ص 159.
[2] _ المرجع السابق ص 134.
[3] _ المرجع نفسه ص 194.

وطول باع»[1] هذه النظرة المتمردة تتجلّى في موقفه من بعض المفاهيم التي ذكرت مفهوم البلاغة والتي ذكرها في قوله : قال الهندي [2]:« أوّل البلاغة أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل الحركات ، خفي اللّحظ، متخير اللّفظ ، لا يكلّم الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قوته التصرف في كلّ طبقة.» وقال الرّومي : « البلاغة هي الإقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة.» وقال الأعرابي :« البلاغة وضوح الدّلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة» وقال الفارسي :« البلاغة هي معرفة الفصل والوصل.» وقال الإمام إبراهيم [3]: « يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السّامع من سوء فهم النّاطق ، ولا يؤتى النّاطق من سوء فهم السّامع »[4] لكن التوحيدي لا يرضى بهذا التعريف ولا يقتنع به بل راح يخضع كلام الإمام إبراهيم إلى مقاييسه النّقدية المتميزة وذلك في قوله : « وهذا الحكم من إبراهيم مبتور ، لأنّ الإفهام قد يقع من النّاطق ولا يكون بما أفهم بليغا ، وليس اشتراكهما بلاغة.»[5]

فالبلاغة في نظر التوحيدي شيء آخر هو : « أن يصيب النّاطق بالطبع الجيّد ، والصناعة المجتبلة ، أو بهما ، وإن ساء فهم السّامع لقصور طباعة أو بعده عن أسباب الفضيلة ، ومن ذا الذي هجا البليغ لأنّ السامع لم يفهم أو هجا السامع لأنّ النّاطق لم يفهم ، وإنّما البليغ الذي يبلغ القصد بأقرب طرق الإفهام مع حسن الغرض ، وليس أقرب طرق الإفهام تقليل الحروف واختصار المراد، قد يكون هذا ، ولكن أقرب الطرق في الإفهام أن تكون الغاية مثالا للعقل ، يكون المعنى مسوقا إليها واللّفظ منسوقا عليها ، فهم السامع أوقصر.»[6]

فالتوحيدي من خلال ذلك كلّه يريد أن يشير إلى حقيقة هامّة هي أنّ الفن صراع عنيف لذلك نجده « يصوّر الجهد الجهيد الذي يبذله أهل البلاغة في سبيل تطويع اللّفظ ، وتصفية المعنى وتخير العبارة ونظم الجمل وتنسيقها ، ووضع كلّ كلمة وكلّ جملة أو عبارة بجانب أختها ، مع

---

[1]_ أبو حيّان التوحيدي " أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء " د. زكريا إبراهيم طبعة القاهرة 1965م ، ص 279.

[2]_ إسمه بهلة كان ممّن استقدمهم يحي البرمكي من علماء الهند ، ولم يكن بعد يحسن العربية بما فيه الكفاية. البصائر والذخائر أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق وداد القاضي ، ط1 ، د. ت ، ج2 ، ص 65.

[3]_هو أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد ابن علي ابن عبد الله ابن العبّاس ، وله دعى أبو مسلم الخرساني ، ولمّا إكتشف مروان ابن محمد أمره قبض عليه فأوصى بالأمر من بعده لأخيه أبي العبّاس السّفاح ، أخباره كثيرة في الكتب . المصدر نفسه ج66/2

[4]_ المصدر نفسه ج2، ص 65.

[5]_ المصدر نفسه ج 2 ، ص 66.

[6]_ المصدر نفسه ج 2 ، ص 66.

رعاية العلاقات بين الحروف وكلمات الجملة.»[1]وغير ذلك ممّا يستحقه النظام البلاغي السليم ، هذا بعد أن يكون البليغ قد امتلك الطبع الجيّد المناسب لذلك. وهذه الفنون كلّها يجملها التوحيدي في مفهومه للبلاغة التي هي في نظره « الكلام الذي يسمح به الطبع ، وليس يخلو هذا المطبوع من صناعة والفن الثّاني هو الذي يطلبه بالصناعة وليس يخلو هذا المصنوع من طبع والفنّ الثالث هو المسلسل الذي يبتذر أثناء المذهبين.»[2]

إنّ مسألة اللّفظ أو المعنى أو ما يعرف بالشّكل والمضمون قد أسالت الحبر الكثير ، وذهب النّقاد إزّاءها شعبا متفرقة ، فمنهم من أثّر اللّفظ عن المعنى [3]، ومنهم من ذهب إلى عكس ذلك [4]، وآخرون ساووا بين اللّفظ والمعنى.[5] أمّا التوحيدي فقد وقف من هذه القضية موقفا وسطا ، لم يكن من الذين يقدّسون اللّفظ بإتباعهم الزخرف والتنميق ، ولا من الذين يسعون إلى إبراز المعنى على حساب قيمة اللّفظ « بل حاول الخروج من دائرة هؤلاء الكتّاب وتحطيم المسار وتحقيق الاستقلالية.»[6] فكان من نتائج هذه الاستقلالية والتمرد على هؤلاء الكتّاب أن صار أدبه كما وصفه الدكتور شوقي ضيف : « ليس لفظيا قعقعة ولا طحن بل هو أدب يحمل زادا كبيرا من المعاني.»[7] وليس غريبا أن يكون أدب التوحيدي كذلك ، فالتوحيدي استوعب ثقافة عصره استيعابا جيّدا ، استطاع من خلاله ، أن يضفي على أدبه شتّى الإشعاعات العلمية وغيرها من الفنون.

وإذا كان التوحيدي قد حقّق لنفسه الاستقلالية في مسألة اللّفظ والمعنى فإنّ الفضل في ذلك يعود إلى توفيقه في الرّبط بين الصناعة والطبيعة أو بين مبدأي الطابع والصنعة. أو دعوته إلى ذلك

---

[1] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، الدار العربية 1983م ، ج1 ، ص 294.

[2] _ البصائر والذخائر أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق وداد القاضي ، ج2 ، ص 68

[3] _ أمثال الآمدي وابن طبابة والمرزوقي وضياء الدّين بن الأثير (أنظر : أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، ج1 ، ص 263 _ 264) وأمثال الصّاحب بن عبّاد وابن العميد والخوارزمي (أنظر : النّثر الفنّي في القرن الرّابع الهجري ، د. زكي مبارك دار الجيل بيروت ، د. ت ، ج1 ، ص 137.)

[4] _ومن هؤلاء ابن مسكويه والمروزباني وبن فارس والجرجاني والأصفهاني والتنوخي وأحمد بن يوسف المصري (النّثر الفنّي في القرن الرّابع الهجري ، د. زكي مبارك ، ج1 ، ص 137.)

[5] _ يقول لبن قتيبة الذي يعتبر من أنصار هذا المذهب : « وخير الشعر ما حسن لفظه وجاد معناه فإذا قصر اللفظ عن المعنى أو خلا اللفظ ولم يكن وراء طائل ، كان الكلام معيبا » الفنّ ومذاهبه في النّثر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط11، ص 267.

[6] _ الأديب والمفكر أبو حيّان التوحيدي ، د. علي دب ، دار العربية للكتّاب ، ط2 ، ص 96.

[7] _ تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات ، د. شوقي ضيف ، الجزيرة العربية ، العراق إيران ، دار المعارف ، ط3 ، ص 462.

حيث يرى « اللّفظ طبيعي والمعنى عقلي »[1] ولكي يبيّن التوحيدي كيفية الرّبط بين اللّفظ والمعنى ، وحتّى لا يترك مجال للشك في مدى وجوب الربط بينهما ، نجده يرى أنّ فصل المعنى عن اللّفظ أواللّفظ عن المعنى ، إنّما هو دلالة على نقص عجز صاحب العمل الفنّي الأدبي لأنّ « المعاني ليست من جهة ، والألفاظ من جهة بل هي متمازجة متناسبة ، فمن ظنّ أنّ المعاني تتخلص له سوء اللّفظ وقبح التأليف ، والإخلال بالإعراب فقد دلّ على نقصه وعجزه.»[2] ويعتبر التوحيدي أنّ الربط بين اللّفظ والمعنى من مقاييس حسن الكلام فيقول واصفا نتيجة التوفيق بين اللّفظ والمعنى وأثر ذلك على الكلام :« أحسن الكلام ما رقّ لفظه ولطف معناه وتلألأ رونقه وقامت صورته بين نظم كأنّه نثر ونثر كأنّه نظم ، يطمع مشهودة بالسمع ويمنع مقصودة على الطبع.»[3]

فالتوحيدي يعنى عناية بالغة بالألفاظ والمعاني ، محاولا أن ينتقي الألفاظ المناسبة دون أن يرجّح إحداها على الأخرى ، وقد خالف في ذلك شيخه الجاحظ ، لأنّ الجاحظ يعتبر من أنصار اللّفظ بل والرائد في ذلك يتجلّى هذا من خلال عبارته المشهورة « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربيّ والبدوي والقروي والمدني ، وإنّما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللّفظ»[4] ومخالفة التوحيدي للجاحظ في هذا الجانب على الرغم أنّه يدين له بكثير من الخصائص الأسلوبية التي أخذها عنه ، إنّما يدلّ على أنّ تمرده يصدر عن قناعة فكرية وفنّية واضحة وليست مجرد مخالفة للعهود، أو اضطراب في الفكر والتصور.

كان التوحيدي يولي اهتماما كبيرا للفكرة دون أن ينقص من قيمة اللّفظ بل كان يحاول أن يكسو الفكر بأجمل وأقوى الألفاظ حتّى يحسن عرضها على قارئه أو سامعه.[5]

و لم يأته ذلك اعتباطيا بل كان نتيجة لاعتماده على حلاوة الذوق الذي أساسه الطبع ، ونفوره من التكلف الذي ألّفته الكتابة في القرن الرّابع الهجري ، وأهمّ المظاهر التي يظهر فيه نفور

---

[1] _ الإمتاع والمؤانسة أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، منشولرات المكتبة العصرية صيدا ، بيروت، ج2 ، ص 145.

[2] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، ج1 ، ص 270.

[3] _ الإمتاع والمؤانسة أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين ، ص 145_ نلاحظ أنّ قول التوحيدي إلى حدّ كبير قول ابن قتيبة الذي سبق وأن ذكرناه إلا أنّ التوحيدي يبقى متميزا عنه في الجانب الحسّي

[4] _ الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة الطبعة العاشرة ، ص 293.

[5] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، ج1 ، ص 491.

التوحيدي من التكلف « انعتاقه من مدرارات السجع »[1] فالتوحيدي بقدر ما كان يستخدم السجع إلّا أنّه لم يتقيد به ، وفي هذا دلالة على أنّه كان ينفر من الكثرة في السجع لما في ذلك من قبح للكلام. فهو يرى أنّ « حظ الكلام المملوء بالسجع كحظ الوجه إذا غمرته الخيلان »[2]، لهذا دعا إلى أن يكون « السجع في الكلام كالملح في الطعام فإنّه متى ظفر منه بمقدار الرتبة ، وحسن الكفاية، حلا منظره ، وظهر بهاؤه ، وسطح نوره ، وانتشر ضياؤه ، ومتى زاد على المقدار ضارع كلام النسأة والكهنة من العرب ، أو كلام المستعربين من العجم.»[3]

وحتّى يكون السجع بهذا المنظر الذي يضفي إلى العمل الأدبي منظرا جميلا ورائعا يجب أن يبتعد عن آلية التكلف ، وأن يكون وليد الطبع وذلك لأنّه « قد "يسلس"[4] السجع في مكان دون مكان ، والإسترسال أدلّ على الطبع ، والطبع أعفى والتكلف مكروه ، والمتكلف معنى ، والنّاس بين عاشق للمعاني وتابع لها فالألفاظ تواتيه عفوا ، وكلف بالألفاظ والألفاظ والمعاني تعصيه أبدا ، فأمّا من جمع بين هذه وهذه ، وكان فيما بمنثورها ومنظومها ، عارف باختلاف مواقع تأليفها فإنّه الحاوي قصب الرهان المعدود في أفاضل الزمان »[5]وولوع التوحيدي بالطبع ، ونفوره من الكلف ، هو الذي جعله يستعيض عن السجع " بالازدواج "[6]أحيانا ، حيث برع في تنغيم الجمل وذلك بتقسيمها إلى فقرات قصار ، متناسبة في الطّول ، يكثر فيها الازدواج يكون أثرها في النّفس وعلى السمع أشبه بالشعر.»[7] ولتوضيح ذلك يمكننا أن نقف مع بعض ما قاله التوحيدي من نصوص كقوله : « صاحب الفقر إذا مدح فرط ، وإذا عمل صالحا أحبط وإن ركب شيئا خلط وخبط ، ولم أر شيئا أكشف لغطاء الأديب ، ولا أنشف وجهه ولا أذعر لسرب حياته منه وإنّ الحرّ الأنف والكريم المتعيف ، من مقاساته والتجلد عليه لفي شغل وموت ماتت.»[8]وقوله : «اللّهمّ إنّ أسألك جدّا مقرونا بالتوفيق ، وعلما بريئا من الجهل ، وعملا عريا من الرياء ، وقولا موشحا

---

[1] _ الأديب والمفكر أبو حيّان التوحيدي ، تأليف علي دب ، ص 155.
[2] _ البصائر والذخائر أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق وداد القاضي ، ج2 ، ص 68.
[3] _ المصدر نفسه ص 68.
[4] _ يسلس : يكثر
[5] _ البصائر والذخائر ، ج2 ، ص 68 _ 69.
[6] _ يسمّيه الرماني " السجع المعطّل : أنظر: أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني دار المعارف القاهرة ، ط4 ، ص60.
[7] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. أحمد محمد الحوفي ، مطبعة نهضة مصر ، ط2 ، ص 381,
[8] _ مثالب الوزيرين أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق إبراهيم الكيلاني ، طبعة دمشق 1961م ص 26.

معناه إلى الكذب الذي هو مخالف الصورة العقل الناظم للحقائق الهذب للأعراض ، المقرب للبعيد، المحضر للقريب.»[1]

« فالصدق في البلاغة منطق آخر غير منطق الصدق في الحياة الواقعية لأنّ البليغ لا يقتصر على محاكاة الواقع بذكر ما هو موجود»[2]بل يقتصر على محاكاة نفسه وما خفي فيها من أحاسيس ومشاعر ، وهذا ما جعل التوحيدي مميّزا في نقده الذي يتجلّى فيه بوضوح النفور من التكلّف. فالتوحيدي ناقد متمرد ، لا يلتزم بالقواعد والجفاف العلمي ، بل كان يصدر أحكامه وآراءه وفقا لعوامله الذاتية والوجدانية من حب وبغض ، « وهو ما يسمّى حديثا بالنقد التأثري أو الإنطباعي»[3] أو ما يسمّى بالصدق الفنّي الذي دعا إليه التوحيدي ، والذي طبع به جلّ كتاباته. فكانت كتاباته مؤيدة موافقة ، ونماذج يمكن لذوي الدراسات النّفسية الوقوف عليها لدراسة شخصية التوحيدي ، لما يغلب عليها (أي كتاباته) من انطباعات تعكس الصورة الحقيقية الداخلية في التوحيدي.

وتعتبر الزحرفة اللّفظية كالمحسنات البديعية ، من أهم المظاهر التي تجلّت واضحة في تمرد التوحيدي. ولقد كانت المحسنات البديعية موجودة في كتابات الأدباء القدامى وذلك بدون إسراف ، إلّا أنّ كتّاب القرن الرّابع الهجري قصدوا إليها قصدا ، وأصبحت الطابع المميّز لكتاباتهم حتّى ظهر بينهم ما يسمّى « أدب الزخرف والبديع »[4] الّذي يحفل بالشكر دون الفكرة. ولقد كان موقف التوحيدي المتمرد الصريح واضحا في قوله :« والّذي ينبغي أن يهجر أسا ، ويرعنه جملة التكلف والإغلاق واستعمال الغريب والعويص وما يستهلك المعنى ، أو يفسده أو يحيله. وينبغي أن يكون الغرض الأوّل في صحة المعنى والغرض الثّاني في تحيير اللّفظ والغرض الثالث ، في تسهيل النظم وحلاوة التأليف.»[5]

---

[1] _ المقابسات أبو حيّان التوحيدي ، تحقيق حسن السندوبي ، منشورات دار المصارف للطباعة والنشر 1991م ، ص 293.

[2] _ أبو حيّان التوحيدي د. زكريا إبراهيم ، ص 285.

[3] _ يقول عنه بودلير : " النقد الجيّد هو النقد التأثري ، لا النقد الرياضي البارد الذي يحاول تفسير كل شيء والمنزه عن الحقد والحب وجمع الأهواء البشري ، أبو حيّان التوحيدي ، د. إبراهيم الكيلاني ، ص 69. أبو حيّان التوحيدي ، عبد الغني الشيخ ص 301. النثر الفنّي في القرن الرّابح الهجري ، د. زكي مبارك ، ص 127.

[4] _ أبو حيّان التوحيدي عبد الغني الشيخ ، ج1 ، ص 466.

[5] _ أبو حيّان التوحيدي ، د. عبد الغني الشيخ ، ج1 ص 297.

ومن ذلك كلّه نستنتج أنّ نفور التوحيدي من السجع أو البديع وكلّ أنواع الزخرفة أو الصناعة اللّفظية لم يكن نفورا مطلقا إنّما هو البعد عن الكثرة من مخالفة الطبع ، واللّجوء نحو التكلف ، وهذا ما تمرّد عليه التوحيدي ودعا الكتّاب والأدباء المنشئين إلى الابتعاد عنه.

خاتمة
ImageTask.com

خاتمة

لقد كان هذا البحث إسهاما متواضعا ، يسعى إلى الكشف عن الموروث الحضاري لأدباء القرن الرّابع الهجري. ويعدّ هذا القرن زهرة الحضارة الإسلامية إذ يمثّل حقبة نضج في تاريخ الثّقافة العربية الإسلامية.

ومن الذين علا عجبهم وبزغ بجمعهم في ميدان الفكر والأدب أبو حيّان التوحيدي ، إمام النّثر العربي ، رائد الحركة الفلسفية الأدبية أو " الأدب الفلسفي " المجدّد الموّصل ، ناصع الموهبة ، عميق المعاناة ، فهو أعظم من عبّر عن غربة الإنسان ، فلقد استطاع أن يمزج في شخصه بين كلّ تلك الثقافات فكان أديبا موسوعيا بحقّ بل وجدنا له أصداء شتّى من المعارف التي كانت سائدة في عصره ، أو كان على الأصحّ مفكر حرّ ، مزج الفلسفة بالأدب فأحالها إلى ثقافة إنسانية بمعنى الكلمة.

وصفوة القول ، أنّ القرن الرّابع الهجري ، كان أوّل عصر بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية حيث كان الكتّاب يجولون في الموضوعات الثقافية ويغذّون عقولهم وقرّائهم بألوان من المعرفة ، يصوّرونها بأقلامهم الفنّية ويهتمّون بالتعبير القويّ عن أفكارهم.

وإذا كان الموضوع متشعبا فإنّ آخر ما يمكن أن أختم به دراستي هو أنّني حاولت بقدر الإمكان الكشف عن الإسهامات الحضارية لأدباء القرن الرّابع الهجري

ولا نبالغ إذا قلنا إنّنا نتطّلع بقلب شغوف ، وبنيّة خالصة إلى اليوم الذي تحذو فيه كلّيات الآداب في الجزائر حذو الكلّيات الأخرى ببعض الدول العربية في جعل الإسهامات الحضارية لأدباء القرن الرّابع الهجري من المصادر الأساسية لأنّ تراثنا لا يقلّ أهمية عن الأدب القديم شعره ونثره.

وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت

وإليه أنيب.

قائمة المراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

- الحديث الشريف.

- أبو حيّان التوحيدي "أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء"، د. زكريا إبراهيم، طبعة القاهرة، 1965م.

- أبو حيّان التوحيدي "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"، إعداد محمد علي الصبّاح، جميع الحقوق محفوظة لدار الكتب العلمية، بيروت، ط1: 1411هـ-1990م.

- أبو حيّان التوحيدي "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"، د. أحمد عبد الهادي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م.

- أبو حيّان التوحيدي د. إحسان عبّاس، بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1956م، د.ط.

- أبو حيّان التوحيدي سيرته وآثاره، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1949م، د.ط.

- أبو حيّان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم، د. محمود إبراهيم الدار المتحدة للنشر.

- أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، د. عبد الأمير الأعسم، دار الأندلس، بيروت، ط2.

- أبو حيّان التوحيدي، د. إبراهيم الكيلاني، دار المعارف، القاهرة، ط4.

- أبو حيّان التوحيدي، د. إحسان عبّاس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1956م.

- أبو حيّان التوحيدي، د. أحمد محمد الحوفي ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، مصر، ط2.

- أبو حيّان التوحيدي، د. عبد الغني الشيخ، الدار العربية، 1983م، ج1.

- أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، د. أحمد علي الملا، دار الفكر دمشق، ساحة الحجاز، ط1: 1399هـ- 1979م، ط2: 1401هـ- 1981م.

- أدباء وفلاسفة، د. مخائيل مسعود، دار العلم للملايين، بيوت، 1999م، ط2.

- الأديب والمفكر أبو حيّان التوحيدي تأليف علي دب، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية.

- الإشارات الإلهية أبو حيّان التوحيدي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، مطبعة فواد 1، القاهرة 1960م.

- الإمتاع والمؤانسة د. أبو حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة المصرية صيدا، بيروت، 1953م.

- البصائر والذخائر أبو حيّان التوحيدي، تحقيق وداد القاضي، ط1، بدون تاريخ، ج2.

- التيّارات المعاصرة في النّقد الأدبي، د. طبانة بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1985م.

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف الأستاذ آدم متز ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، 1986م.

- الحضارة الإسلامية وآثارها على المدنية الغربية، الأستاذ موسى عبد اللّاوي، دار العلوم للنشر والتوزيع، حقوق الطبع محفوظة.

- الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر، د. الربعي بن سلامة، ديوان المطبوعات الجامعية.

- الفكر الجمالي عند التوحيدي، د. بهنسي عفيف المجلس الأعلى للثقافة، دمشق، 1999م، د.ط.

- الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط10.

- الفنّ ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط: 11.

- الله والإنسان في فلسفة التوحيدي، د. الملطاوي حسن كمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1989م، د.ط.

- المجتمع والرؤية: قراءة نصيّة في الإمتاع والمؤانسة أبي حيان التوحيدي، د. الحبيب شبل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1993م.

- المقابسات أبو حيّان التوحيدي تحقيق حسن السندوبي، منشورات دار المصارف للطباعة والنشر، تونس، 1991م.

- النّثر الفني في القرن الرّابع الهجري، د. زكي مبارك، دار الجبل، بيروت، دون تاريخ، ج1.

- النقد الأدبي حول أبي تمام والبحتري في القرن الرابع الهجري، د. محمد علي أبو حمدة، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1: 1969م.

- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1980م، د.ط.

- تاريخ الأدب العربي ، د.حنّا الفاخوري، المكتبة البوليسية للنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.ت.

- تاريخ الحضارة الإسلامية، د. نبيلة حسن محمد، دار المعرفة الجامعية.

- دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهرين عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، دار المدني بجدة، مطبعة المدني، ط3: 1413هـ-1996م.

- شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبا"، د. زيغريد هونكة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط6: 1401هـ- 1981م.

- ظهر الإسلام د. أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، ج2.

- على عتبات الحضارة- بحث في السنن وعوامل التخلف والانهيار- د. بتول أحمد جندية، دار الملتقى سورية، حلب، ط1: 2011م-1432هـ.

- فلسفة الجمال ومسائل الفنّ عند أبي حيّان التوحيدي، د. حسين الصديق، دار القلم العربي، دمشق، 2003، ط1.

- مثالب الوزيرين أبو حيّان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، طبعة دمشق، 1961م.

- مستقبل اللّغة العربية بين محاربة الأعداء وإرادة السماء د. أحمد بن نعمان شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1: 2008م.

- معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، د. محمد فاروق الإمام، دار المأمون للنشر والتوزيع العبدلي عمارة جوهرة القدس، ط1: 1329هـ-2007م.

- معالم الحضارة العربية الإسلامية، مدخل – نظم- علوم- زراعة وصناعة اجتماعيات عمارة وفنون- تأثيرات، د. إسماعيل سامعي، ديوان المطبوعات الجامعية 10-2007م.

- معجم الأدباء ، د. ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.

- معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب تصنيف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، المجلد الخامس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1411هـ- 1991م.

- معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب تصنيف أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1411هـ- 1991م.

- معجم الأدباء في عشرين جزءا، د. الحموي، المجلد الثالث، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3: 1400هـ-1980م.

- معجم الأدباء في عشرين جزءا، د. الحموي، المجلد السابع، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3: 1400هـ-1980م.

- مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توبيني، آمنة تشيكو، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

- من قضايا النّثر الفنّي في القرن الرّابع الهجري وما بعده، د. فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2002م، د.ط.

- موسوعة الأدب والأدباء في العرب في روائعهم العصر العباسي (2) ، إعداد إميل بديع يعقوب، جميع الحقوق مطبوعة للناشر، ط1: 2006م.

- موسوعة الأدب والأدباء في العرب في روائعهم، إعداد إميل بديع يعقوب، ج5، العصر العبّاسي الأول، جميع الحقوق مطبوعة للناشر، ط1: 2006م.

- موسوعة الأدب والأدباء في العرب في روائعهم، الجزء السابع، إعداد إميل بديع يعقوب، العصر العباسي الأول، جميع الحقوق مطبوعة للناشر، ط1: 2006م.

- ميزان الاعتدال في نقد الرحال، د- الذهبي حافظ، دار إحياء الكتب العلمية، مصر، 1963م، ج4، د.ط.

- نظرية الأخلاق والتصوف، د. وسيم إبراهيم، دار دمشق للنشر والتوزيع، دمشق، ط1: 1994م.

- نماذج لعلوم الحضارة الإسلامية وأثرها في الآخر، د. خالد حربي الناشر دار وفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1: 2006م.

- نوابغ الفكر العربي- أبو حيّان التوحيدي، د. إبراهيم الكيلاني، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

الفهرس
ImagemFacil.com

فهرس الموضوعات

_ مقدمة	أ_
	جـ
_ مدخل	8-1
_ الفصل الأول: الحركة الفكرية في القرن الرّابع الهجري	60-9
_ المبحث الأول: ميادين الفكر في القرن الرابع الهجري.	24-9
_ المبحث الثاني: الحضارة العربية الإسلامية بين التأثير والتأثر.	52-26
_المبحث الثالث: دور الحضارة في الأدب و اللّغة.	60-54
_ الفصل الثاني: الإسهامات الحضارية.	70-62
_ المبحث الأول: الإزدهار الحضاري في القرن الرابع الهجري وأدبائه.	65-62
_ المبحث الثاني: أبرز الأدباء في القرن الرابع الهجري.	70-66
_ الفصل الثالث: أبو حيّان التوحيدي وقضايا اللّغة أنموذجا.	102-71
_ المبحث الأول: التعريف بحياة أبي حيّان التوحيدي.	83-71
ثقافته.	78-75
فكره وعقيدته.	80-78
معالم شخصيته.	80
آثاره.	82-80
_المبحث الثاني: أبو حيّان التوحيدي الأديب.	92-84
_ المبحث الثالث: أبو حيّان التوحيدي في الدرس اللّغوي.	102-94
_ خاتمة	103
_ المصادر والمراجع	109-104
_ الفهرس	110